التجديد

في الأدب الإنجليزي الحديث

تأليف

سلامة موسى

مؤلفات أخرى لسلامه موسى

نظرية التطور وأصل الانسان

اليوم والغد

مختارات سلامه موسى

فى الحياة والادب

منع الحمل وضبط التناسل

قصص مختلفة

أحلام الفلاسفة

جيوبنا وجيوب الاجانب

العقل الباطن

أشهر قصص الحب التاريخية

حرية الفكر وابطالها

أشهر الخطب ومشاهير الخطباء

تحت الطبع

غاندى والحركة الهندية

فهرست

صفحة

٩ التجديد فى الادب الانجليزى
١٤ جمود العصر الفكتورى
١٨ الرجعيون الثائرون
٢٢ بواعث التجديد
٢٥ بعض الاجانب وأثرهم فى الادب الانجليزى
٣٢ اثنان من الرواد
٣٦ المنحطون فى الادب الانجليزى
٤٠ كبلنج : شاعر الاستعمار
٤٤ الاقتصاد فى الادب الجديد
٤٧ برنارد شو
٥٠ الدرامة الاجتماعية
٥٤ فلسفة برنارد شو
٥٩ من داروين الى برغسون
٦٤ ولز
٦٨ دراسات ولز الاجتماعية
٧٢ ولز بين الوطنية والاجتماعية
٧٦ جالزورثى
٧٩ رجال الذهن فى انجلترا
٨٣ الثائرون
٨٧ لورنس أحد الثائرين
٩٠ جيمس جويس
٩٣ الدوس هوكسلى

المقدمة

هـذا الـكـتاب هو عرض ونقد للأدب الأنجليزى فى السنين الأربعين الماضية . وفى هذه المدة ظهر أدباء ثائرون على التقاليد فى هذا الأدب ومجددون له . وقد حاولت أن أبين للقارىء العربي المغزى من هـذا التجديد . وعندى أن التجديد فى الأدب هذه الأيام لايعنى شيئاً آخر سوى التجديد فى الحياة . وهذا هو مانفهمه من المجـددين الانجليز الذين نعرضهم فى الفصول التالية . فان الأديب الانجليزى يتصل بالحياة ويتأثر بها ويؤثر فيها وهو ينتقد أسلوب العيش أكثر مما ينتقد أسلوب الـكـتابة . وهذا خلاف ما نجد من طبقة الأدباء التقليديين فى مصر حيث الاهتمام كبير بالاسلوب الـكـتابى فى حين ليس هناك اهتمام أصلا بأسلوب العيش . فان الأديب التقليدى يعنى مثلا بأسلوب الجاحظ الـكـتابي ولا يعنى بأسلوب الفلاح المصرى فى العيش . وهو يكتب عن العرب ومجدهم وتاريخهم ولا يكتب عن مصر ونكباتها الحاضرة وما تعانيه من مظالم اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية . ولذلك فأن أدبه هو أدب الـكـتب الذى يجعله يعيش وهو فى عزلة عن الوسط الذى يحيط به . وهو هنا يشبه أدباء القرون الوسطى فى أوربا والعالم العربي

ولـكن الأدب الأوربى الحديث ، وخاصة الأدب الانجليزى ، هو أدب الحياة ينتقد المعايش والغايات ويجعلها موضوعه سواء فى القصة أو المقالة .

وهو لذلك يتصل بأنواع النشاط الانسانى كله . فللأديب رأيه فى العلم والصناعة والاقتصاد والطب والزواج والتعليم والصحافة بل من الأدباء الانجليز ، مثل برنارد شو ، من ينتقد النظريات الطبية . ومنهم من يدعو الى الايمان بدين جديد

والحق أن التجديد فى الأدب يشبه التجديد فى الفلسفة . فقد كانت الفلسفة القديمة ترتفع عن درس الحياة الدنيا وترصد نفسها لدرس كنه الأشياء والفرق بين ما نعرفه عن الشيء وماهية هذا الشيء . وكانت تبحث ما قبل الوجود وما بعده وهى فى ذلك كله تبتعد عن الناس ومعايشهم . ولكن الفلسفة الجديدة تدعو الى الكف عن البحث عن كنه الأشياء وتقنع باستخدامها لمصلحة الانسان . وكذلك الحال فى الأدب فانه كان يعتكف بين الكتب ويترفع عن نقد المعايش وغاية الانظمة الاجتماعية والاقتصادية . وكان الأديب يدأب فى الاجترار لايغتذى مما حوله ولكنه يغتذى بالمؤلفات القديمة . أما الآن فان الاديب الجديد يكاد ينظر الى الادب القديم نظرة بيكون إلى العلوم القديمة . فهو يطلب التجربة والاختبار بنفس الروح الذى طلبهما به علماء النهضة . وذلك لأنه يشك فى قيمة المقاييس القديمة . ثم هو يستخدم أدبه ، كما يستخدم الفيلسوف الجديد فلسفته ، لمصلحة الانسان . فيبحث أساليب العيش والاجتماع ولا يكاد يبالى أساليب الكتابة

ومع انى عرضت لطائفة من الادباء فى مدى السنين الاربعين الماضية وعالجت آراءهم بالشرح أو النقد أو التعليق فانى أرى الآن انه كان يكون أروح لى لو انى قصدت إلي واحد منهم فاقتصرت عليه بالدرس . وذلك لأن الأسهاب فى شرح فترة قصيرة هى حياة الأديب ، يتناول من الدقائق المفيدة والتفاصيل الطريفة ، مايضطر الكاتب إلى التجاوز عنه حين يعمد إلى موكب كامل من الأدباء يصف أفراده مع الايجاز الذى قد يكون مخلا فى بعض الأحيان . ولكن

القارىء العربى الذى يجهل الأدب الأنجليزى يؤثر رؤية الموكب على رؤية الفرد وعنده أن الالمام بطبقة الأدباء المجددين خير من الاحاطة بواحد منهم. وهو على حق فى هذا الرأي . وذلك لان كلا منهم قد انتحى ناحية فى التجديد لم ينتحها غيره . والاسهاب فى شرح الادب لواحد منهم لا يقوم مقام التلخيص للكل

وعلى هذا الاعتبار يمكننى ان أقول ان هذا الكتاب هو فى حقيقته مقالة مسهبة أو هو المقدمة لدرس التجديد فى انجلترا . وأملى ان أوفق فى القريب إلى درس واحد من هؤلاء المجددين لعله برنارد شو . فيكون هذا الكتاب الراهن بمثابة الفرش للصورة يهيىء للقارىء البيئة التاريخية والثقافية التى تكون منها هذا الاديب العظيم

فليقرأ القارىء اذن هذا الكتاب على اعتبار أنه مقدمة لدرس التجديد الادبى فى انجلترا . وعليه ان يلتفت إلى التفاعل المستمر بين الادب والاجتماع وان يقابل بين هذه الحال وبين ما نحن عليه فى مصر وخاصة عند أدبائنا التقليديين الذين قطعوا بين الحياة الراهنة وبين ما يزاولونه من أدب قديم فى الاسلوب والغاية والموضوع

سلامة موسى

التجديد فى الادب الانجليزى

اذا ذكر الانجليزى عبارة « العصر الفكتورى » عنى بذلك نحو سبعين سنة قضتها انجلترا فى خمول يشمل الاخلاق والادب بين سنة ١٨٣٠ وسنة ١٩٠٠ وهى المدة التى تولت فيها الحكم الملكة فكتوريا

وقد كان هذا العصر عصر تجديد بل ثورة فى العلوم . ففيه ظهر داروين وقلب البيولوجية رأساً على عقب واستحالت نظرياته إلى مذاهب تشبه المذاهب السياسية من حيث ابتعاث الحماسة أو المقت . وفيه ظهر هربرت سبنسر الذى قضى حياة طويلة يدافع عن مادية صريحة . ومن الناس من يطلق عليه وصف الفيلسوف مع انه أعدى أعداء الفلسفة إذ هو عالم لا يؤمن إلا بالعلم . وظهرت فى هذا العصر نزعات علمية كثيرة نقلت الطب من الكهانة والسحر إلى التجربة ونقلت التربية من حفظ اللغتين الاغريقية واللاتينية إلى درس الطبيعات والكيمياء

وكانت المدنية الانجليزية فى هذا العصر الفكتورى تنتقل من الزراعة إلى الصناعة ، ومعايش الناس تتجدد من حيث اختلاف الحرفة ولكنها تبقى مع ذلك جامدة من حيث العادات الاجتماعية

وهذا الجمود شمل الحياة الاجتماعية . وإلى الآن لا يزال الانجليزى يستعمل لفظة هى « المسز جرندى » التى تدلنا على هذا الجمود . فان هذه المسز أو السيدة هي ربة البيت الانجليزية التى كانت تحتم على أعضاء منزلها الوقار والاحتشام بل التزمت فلم تكن تسمح للفتاة بالخروج وحدها أو المزاح مع الشبان أو اتخاذ الملابس المختصرة أو ارتياء الآراء الجديدة . وكان البيت الانجليزى مدة ذلك العصر مثالا للجمود بل الكمود لوجود هذه السيدة المحترمة التى كانت تعتقد انها تصون الاخلاق بتزمتها

والادب بطبيعته يساير الحياة الاجتماعية فان الاديب يكتب مقالته ، أو يؤلف قصته ، وهو يفرض جمهوراً يسمعه . فاذا هو ارتأى رأيا ينبو عن ذوق هذا الجمهور أو عقائده أو أخلاقه أكنه فى نفسه وكظمه وأبدى غيره مما يرضى هذا الجمهور . وقد يقال هنا أن حرية الرأى تقول بغير ذلك . ولكن يجب على القارىء أن يعرف ان الجمهور يحد من حرية الرأى مثلما تحد منها القوانين سواء . ولذلك كان جميع الادباء فى العصر الفكتورى يحترمون آراء المسز جرندى ولا يخالفونها إلا فى تواضع وذلة . ولهذا السبب اتجه الادب الانجليزى طول مدة القرن التاسع عشر نحو الصياغة اللفظية دون التفكير والاقتحام . فنحن إذا قرأنا ما كولى المؤرخ راعنا أسلوبه وعبارته الملحنة المنغمة ولكننا نخرج منه بلا شىء من حيث التفكير . وكذلك الحال مع سكوت وثاكرى القصصيين

وقد يستطيع القارىء أن يذكر الشاعرين شلى وبيرون وان يصفهما بالثورة على التقاليد والعرف والنزوع إلى حرية الاغريق . وهذا صحيح . ولكنهما عاشا وماتا وكأنهما غريبان عن انجلترا تقرأهما فئة صغيرة وتقتنى مؤلفاتهما وتدسها فى زوايا الحجر حتى لاتراها عين هذه السيدة المحترمة المسز جرندى

واستمر الجمود شاملا للاجتماع والادب إلى حوالى سنة ١٨٨٠ حين أخذت تتراكم أسباب الثورة أو التجديد وتستمد قوتها من العلوم الجديدة . فهذه الصناعة مثلا تبعث كارل ماركس على تأليف كتابه فى ضرورة الاشتراكية مع شروح وافية مؤلمة فى فساد الهيئة الاجتماعية الحاضرة . وهذا العلم الجديد « البيولوجية » يبعث إبسن الشاعر النروجى على تأليف درامة تصف سلطان الوراثة وكيف يرث الابناء نقائص آبائهم فى الجسم والغريزة . ثم هذه المادية الجديدة تبعث الشاعر سوتبرن على ان يؤلف القصائد فى الانتقاض على العقائد . ثم نرى دعوة الى الجمال يدعو اليها أوسكار وايلد من ناحية ، وولتر باتير من ناحية أخرى مع اختلاف بين الاثنين فى الوثن الجميل الذى يتعبد له كل منهما . فان الاول يحب باريس الحديثة ويتغنى بلياليها ويعرف للترف المادى قيمته فى

الجسم الرائع والمائدة المطهمة والحديث البارع ولذة اللحم . والثانى يحب أثينا القديمة ويذكر آلهتها وفلاسفتها ويساوى بين الاثنين ويرى فى تمثال الرب افلون أنموذجا فذاً للجمال الانساني كما يرى فى شبان الاغريق نماذج أخرى لجمال الآلهة

وكل هذا يحدث على الرغم من الجمهور حتى ان أوسكار وايلد قد قضى سنتين فى السجن لانه عمل بما قال ونزل بالواقع الي ما كان يتخيله وجعل من الادب حياة يعيشها على نحو تلك الحياة التى كان يعيشها أبو نواس وهي لاتختلف من أدبه كما لايختلف خياله من واقعه وقصيدته من معيشته

ولكن ما نكاد نقترب من سنة ١٩٠٠ حتى نجد الانفجار . ولهذا الانفجار أسباب خارجية وأخرى داخلية وقد ذكرنا هذه الاسباب الداخلية وهى تنحصر فى التقدم العلمى الذى عكس أشعته على الادب ، والتقدم الصناعى الذى عكس أشعته على التفكير الاجتماعى . وكانت انجلترا طول مدة القرن التاسع عشر فى مقدمة الامم فى العلم والصناعة فتأثر الادب من هاتين الناحيتين يرجع اليها وحدها

ولكن كان فى أوربا مؤثرات أخرى . ومن أغرب مايذكر هنا ان أعظم هذه المؤثرات وهو الادب الروسى لم يترك أثراً صغيراً أو كبيراً فى انجلترا . وأدباء الانجليز جميعهم يعترفون بسمو هذا الادب وانه الادب الانسانى الرائع الذى لم يخلق مثله فى العالم ومع ذلك ليس فيهم واحد — ولا واحد — قد تأثر به . ولست أستطيع ان أعزو ذلك إلا الى ان البيئة الانجليزية تختلف جد الاختلاف عن البيئة الروسية

أما سائر المؤثرات فيرجع بعضها الى إبسن الشاعر النروجى الذى يمكن ان يقال انه جدد الدرامة الانجليزية عن سبيل برنارد شو . وقد أنكر برنارد شو انه مدين لهذا الكاتب النروجى ولكن الذى يقرأ الاثنين لايستطيع إلا الاعتراف بان الثانى مدين للأول فى فنه وآرائه وثورته على العرف ودعوته إلى استقلال الشخصية ودعوة المرأة الى الرجولة ، ولا أقول الاسترجال . ويقول

برنارد شو انه تلميذ لأديب انجليزى هوصموئيل بطلر ولا شك فى أنه صادق فى ادعاء هذه التلمذة ولكنها ليست كل شىء فى تلمذته . فانه مزيج من داروين ونيتشه وإبسن وبيرون وبرجسون

ومن المؤثرات الحديثة القوية فى الأدب الانجليزى نجد لنظرية « التحليل النفسى » والعقل الباطن أكبر الأثر . وهذا الأثر أكبر وأعظم فى الشبان المجدد

ويمكن أن نقسم الادب الجديد أو المجدد الى ثلاثة أقسام هي ثلاثة أطوار: طور الرائدين ثم طور المجددين وأخيراً طور الثائرين

وهـذه التسمية نريد بها التوسل الى فهم التجديد ولا نريد بها التعيين . ففى الطور الاول نجد الرائدين وهم سوينبرن الشاعر وهو انما يثور على العقائد دون العرف الاجتماعى . ثم صموئيل بطلر أستاذ شو . وهو ثائر على العرف الاجتماعى وكلاهما يدعو الى احترام الشخصية واستقلال الفرد استقلالا دينياً اجتماعياً . ثم نجد أنه يعاصرهما أوسكار وايلد وولتر باتير وكلاهما يدعو الى الجمال دون الاخلاق الشائعة مع فرق سبق أن بيناه . ثم ندخل بعد ذلك فى طور المجددين . فنجد برنارد شو فى المقدمة لا يقنع بالانتقاض على الدين بل هو يثور أيضاً على الاجتماع والعرف وهو ليس هداماً يرضى بالهدم ويسكت عنده ولكنه يبنى فيدعو الى الاشتراكية واستقلال الشخصية ويرسم الطرق لاستخراج السبرمان وكأنه يضع مقايسة ويقوم بعملية حسابية عن توليد خروف أبيض من نعاج سود . وهو كافر يعتقد فى نفسه أنه مؤمن ومادى يظن انه روحى وعالم يمارس الادب ويعلن احتقاره له وكاهن من كهنة الانسانية الجديدة وجوهرة من جواهر الادب الحديث

ومن المجددين أيضاً ولز . وهو يشبه برنارد شو من وجوه كثيرة من حيث النظر العالمى للادب وان كان هو من حيث المزاج أديب بينما شو عالم . وولز الآن قوة من قوى الخير فى العالم وهو أكبر أثراً من عصبة الامم فى الدعوة الى الاخاء وقد رضى بالتضحية بالفن من أجل الوعظ فانه يعظ ويعظ ولا يفتأ

يعظ ويبين للناس كيف يتوقون الحروب والامراض ويدلهم على وسائل الخدمة الانسانية . وقد حاول أن يؤمن وأخلص فى المحاولة إلا أنه فشل ولكنه مع ذلك لايدعو إلى الكفر أو الالحاد

ثم ندخل فى طور الثائرين وهم الشباب الجدد الذين كابدوا من الحرب ويلاتها وعرفوا منها السفالة العميقة التى يمكن ان تهوى اليها الانسانية على الرغم من طلائها النظيف . وجميع هؤلاء الثائرين قد درسوا التحليل النفسى والعقل الباطن وخرجوا من هذا الدرس بجواهر تحيط بها أكوام من « الزبالة » . وقد خالفوا أوضاع القصة ورفضوا حتى عرف الكتابة بحيث ان الذى لم يتسلم مفتاحهم لا يكاد يفهم ما يكتبونه . ومفتاحهم هو « العقل الباطن » وما فى داخل رؤوسنا من حشرات وأفاع . ولكنهم مع ذلك يعرفون انه إلى جنب هذه الحشرات والافاعى طواويس زاهية وفراش جميل . ثم إلى جنب هذا وذاك نزوع غامض فى النفس الانسانية نحو الكمال . وأبطال هذا الطور هم لورنس وهوكسلى وجويس

والمستقبل لهؤلاء على الرغم مما فيهم من ضعف وتردد بل من خلط واضطراب لانهم قد حطوا على حقائق النفس الانسانية وكشفوها وأبانوا عنها عارية ولم يسترروا منها قبحاً أوحسناً . فهم يتسابقون فى ميدان جديد جرى فيه ولز نفسه شوطاً ثم كف عنه

وهذا كلام كله مختصر يحتاج الي اسهاب فى الشرح

جمود العصر الفكتوري

كان العصر الفكتوري أي الفترة الواقعة بين سنة ١٨٣٠ وسنه ١٩٠٠ يوهم بالجمود في الأدب باعتبار الأدب فنا من الفنون الجميلة

وقد سبق هذا العصر شاعران كان ينتظر منهما أن يبعثا نهضة جديدة في الأدب الانجليزي هما شلي الذي مات سنة ١٨٢٢ وبيرون الذي مات سنة ١٨٢٤ ولكنهما ماتا وكأنهما لم يعشا . وإذا كان أحد يقرأهما هذه الأيام فذلك يرجع إلى النهضة الحديثة التي ابتدأت حوالي سنة ١٨٩٠

بدأ شلي حياته الثائرة بتأليف كتاب في «ضرورة الالحاد» وطرد من الجامعة لهذا السبب . ثم رحل إلى دوبلين عاصمة إرلندا وهناك دعا إلى استقلال إرلندا ومات في سن الثلاثين

أما بيرون فقد رحل إلى بلاد الاغريق يؤلف القصائد في الدفاع عن حريتها وقصائده هي أناشيد الحرية يقرأها القارىء الى الآن بل يتغنى بها

ولكن شلي وبيرون كما قلنا ماتا دون ان يتركا لهما خلفاً للعصر الفكتوري يدعو الى الحرية . ومضى هذا العصر على طوله كأنه عصر الظلام يقرأ فيه الناس تاريخ ماكولى فيعجبون بأنفسهم وامبراطوريتهم ومجدهم وعظمة برلمانهم وهذا الماكولى يمكن القارىء الآن ان يعرف حقيقة واحدة عنه تكفيه للحكم عليه . فقد ذكر عن الهندى انه لا يقبل الرق وكاد يقول انه جبل من طينة أخرى غير الطينة التي جبل منها الانجليزي وهذا هو الرأى الاستعمارى الذى مايزال يقول به كبلنج الشاعر . والقارىء المصرى يعرف الان انه ليس كبلنج ولا ماكولى الانجليزيان جديرين بأن يحل أحدهما سيور حذاء غاندي الهندى

فالام يعزى هذا الجمود في العصر الفكتوري ؟

يعزى الى شيئين أولهما الروح المادية التي انتشرت فيه بتدفق الثروة علي

الانجليز ونجاحهم فى الاستعمار . والثانى الروح الدينية التى ورثها الانجليز عن النهضة الطهرية

فى العصر الفكتورى ازداد استعمال الالات فى المصانع وكادت انجلترا تختص بالصناعات الالية فكانت تغزل وتنسج وتصنع المعادن وتصدر مصنوعاتها الى أوربا والقارات الاربع الاخرى . وانجلترا هى التى شرعت للعالم سبيل الصناعة الالية باختراعها الالات البخارية والاعتماد على الفحم وقد أثرت اثراء فاحشاً وأخذ أسطولها يفتح لها الاسواق بالاستعمار . فكانت طول العصر الفكتورى فى نهضة اقتصادية بعثت فيها الروح المادية والاكبار من شأن الترف والنجاح المالى على نحو ما نرى الان فى الولايات المتحدة الامريكية التى تقوم بالدور الثانى للنهضة الاقتصادية الالية . وهذا النظر المادى المالى هو أقوى العوامل لتثبيط الحركات الادبية (٦)

أما العامل الثانى فهو النهضة الدينية التى فشت فى انجلترا واتخذت شكلا خاصا يقرب من النزعة الوهابية فى جزيرة العرب نعنى بها تلك الحركة الطهرية (بيوريتان) التى تدعو الى التقشف وكراهة الفنون والابتعاد عن الملاهى . وهذه النهضة هى التى اخترعت الملابس السود الكابية للرجال وهى التى ما زلنا نرى أثرها حتى فى رجل مجدد مثل برناردشو حين يمتنع عن تناول طعام اللحم أو الخمر وحين يميل الى الزهد . ولا يمكن الدرامة أو القصة أن تنجح أمام هذه الروح التى لا تجيز للمؤلف ان يترخص مثلا فى رواية الحب والغرام

ونشأ من هذين العاملين أى مادية النهضة الاقتصادية وروح التقشف الدينى نزوع فى الامة الى لزوم العرف وكراهة البدع . وأصبح القصصى لكى يتجنب النقد يعمد الى خياله ويبتعد من الواقع ما استطاع ذلك . وحركة التجديد التى قامت عقب العصر الفكتورى هى فى لبابها ثورة على هذا الادب الخيالى الفكتورى السخيف الذى لا ينطبق على حقائق الحياة

وقد رأينا كيف ان الروح المادية قد أتلفت ذهن المؤرخ ماكولى فجعلته

ينسى انسانيته ويحتقر الهنود ويبعثه زهو الثروة والنجاح المالى والتوسع الامبراطورى على ان يؤلف تاريخا للانجليز يرفعهم فيه الى مقام الآلهة ويزهى فيه بعظمتهم

والى جانب ماكولى نجد رجلا آخر يغمر تاريخ الملكة فكتوريا بشخصيته هو كارليل الذى مات سنه ١٨٨١ . فان الروح الدينية أتلفت ذهنه كما أتلفت الروح المادية ذهن ماكولى فاستحال واعظا بعد ان كان يرجى منه ان يكون أديبا . وخاصة اذا اعتبرناه وقد بدأ حياته بتأليف كتاب عن الثورة الفرنسية (١٨٨٩) وكان الطراز الاعلى للأدب عنده ذلك العظيم الالماني جوتيه . فاذا كان درس الثورة الفرنسية ورجال الذهن الذين هيأوا لها ، ثم التتلمذ لجوتيه لايخرج للناس أديبا عظيما فلابد ان يكون هناك حاجز صفيق لاتستطيع بصيرته ان تنفذ منه . ولنضرب لذلك مثلا مقابلة بين جوتيه وكارليل فى موضوع معين عالجه كل منهما

فقد عالج جوتيه موضوع الواجب وكيف يجب ان نعمل فى الدنيا فلا نترك ساعة من حياتنا حتى نملأها بعمل مفيد . ولما مات ابنه حزن عليه ولكنه لم يجزع ولم يستسلم للكمود والهمود بل نفض عن نفسه الحزن وهب الى العمل . ولكن ماذا كان يقصد اليه جوتيه من الواجب وكراهة التعطل ؟

كان يقصد من ذلك الى ان تزداد شخصيته عرفانا وقوة فيزداد بذلك حرية واستمتاعا . وكان يرى فى الجهل تقييداً فكان يدرس العلوم والآداب بروح الطالب . وكان يرى فى الدعة والانكفاف تضييقا لشخصيته فكان يختبر كل شىء ولا يبالى وهو فى الثمانين ان يعشق ولا يمنعه درسه من ان يقوم بأعمال ادارية وسياسية . وقد اندغمت ثقافته فى شخصه فكان يقبل على الدنيا ويلتذ الحياة ويستغل ما كسب من اختبارات ومعارف لكى تقوى شخصيته وكأنه يرى نفسه مركزاً أو محوراً للكون . فنحن يجب علينا فى رأي جوتيه ان نكبر من

شأن العمل ونقبل عليه ونؤدى واجبنا فيه لكى نستكمل به شخصيتنا ونزيد استمتاعا بالدنيا

ولكن كارليل يدعو الى الواجب لغاية أخرى انحدرت اليه من المبادىء الطهرية التى شاعت فى انجلترا وصبغتها بالروح الدينية . فقو يقول :

« نحن هنا على الارض جنود نحارب فى قطر غريب ولسنا ندرى الغاية المقصودة من هذه الحرب ولسنا فى حاجة لان ندريها وانما علينا ان نؤدى ما يجب تأديته وعلينا ان نؤديه كالجنود بالطاعة والشجاعة وطرب البطولة »

والفرق واضح بين الاثنين . جوتيه أديب وكارليل واعظ . وقد تستطيع ان تفضل كارليل على جوتيه وأنت بذلك تفضل النهضة الدينية التقليدية على النهضة الادبية الاستمتاعية كما يمكنك ان تقول ان الوهابيين فى كراهتهم للفنون والترف والاستمتاع والالتذاذ خير من الباريسيين الذين لايبالون ما يفعلون ولا يحترمون التقاليد . وأنت حر فى هذا النظر . ولكن يبقى بعد ذلك ان تعترف ان فى باريس فنونا جميلة وأدبا رائعا ولكن ليس فى الرياض عاصمة نجد شىء من ذلك

والطهريون فى انجلترا هم وهابيو الديانة المسيحية وقد صبغوا الادب الانجليزى بصبغة التقشف فى العصر الفكتورى

الرجعيون الثائرون

ساد الوسط الاجتماعى فى القرن التاسع عشر فى انجلترا روح مادى يدفع بالناس إلى التكالب على جمع المال . وقد بعث هذا الروح انتشار الآلات وقيامها مقام الأيدى فسهل بذلك جمع المال بتراكم الأرباح وقيام المصنع الكبير الآلى مقام عشرات بل مئات المصانع الصغيرة

فالى القرن التاسع عشر كانت الصناعات لاتزال فى أيدى الصانعين كل صانع يستقل بمصنعه فهو نفسه عامل وصانع . فلم يكن هناك طبقة كبيرة من العمال لاتملك سوى الأجور وطبقة أخرى صغيرة من المولين تملك المصانع الضخمة . وكانت الصناعات أشبه الاشياء أو أقرب الاشياء إلى الفنون كما هو الحال إلى الآن فى النجارة . فالنجار — المصرى على الاقل — هوفنان كما هو هو صانع يتأنق ويلتذ عمله وينشد منه جمالا ومصلحة . ولكن العامل فى المصنع الآلى الكبير الذى يضم بين جدرانه نحو مائة أو ألف عامل لا يمكنه ان يمزج بين الفن والصناعة لأنه يختص بجزء من العمل كأن يقنع بصنع الكوتشوك من الاتومبيل أو بدهنه بالطلاء أو فرشه وتنجيد مقاعده أو نحو ذلك . فاذا قابلنا بينه وبين النجار الفينا هذا الثانى خالقاً يبتكر ويخرج من بين يديه شيئاً تاماً وله مادة أصلية فما يزال به حتى يخرجه خلقاً سوياً قد انطبع بشخصيته . فالعامل هنا فنان يحب عمله ويلتذه وهو يرقى به . ولكن العامل فى المصنع الكبير لايصنع سوي جزء صغير من السلعة التى يقتسم صنعها العمال جميعاً . فهو عامل لا أقل ولا أكثر وهو أشبه بالآلة منه بالانسان

ولم تكن الصناعة اليدوية تؤذن بتراكم المال فى أيد قليلة كما هي الحال الآن فى الصناعة الآلية التى جمعت رأس مال الصناعة فى طبقة من المولين وجعلت جميع الصناع عمالا مأجورين

وكان القرن التاسع عشر أو العصر الفكتوري فى انجلترا قرن الانتقال من الصناعات اليدوية إلى الصناعات الآلية . وهـذا الانتقال نجده الآن على أشده بوشك ان يتم ويبلغ أوجه فى الولايات المتحدة التى يصنع أحد مصانعها نحو عشرة آلاف أتومبيل فى اليوم . وهذه الولايات المتحدة هى الرائدة الآن للعالم كله فى هذا الاتجاه وفى إيجاد حضارة صناعية تمحو ما قبلها من حضارات زراعية

وفى كل انقلاب نجد فريقين فريق الآسفين المتشبثين بالماضى ونحن نسميهم رجعيين أو جامدين إذا كنا نكرههم . وفريق الراغبين فى الحال الجديدة الداعين اليها ونحن نسميهم المجددين إذا كنا نحبهم . اما إذا كنا نكرههم فاننا عادة نتهمهم بالالحاد والاباحية والمادية

وهذا هو ماوقع فى انجلترا فى أواخر القرن الماضى . فقد ظهر أدباء يدعون إلى التجديد وآخرون يدعون إلى الاستمساك بالقديم . ونحن هنا نقصر الكلام على اثنين من عظماء الرجعية فى انجلترا هما جون روسكين (١٨١٩ — ١٩٠٠) ووليم موريس (١٨٣٤ — ١٨٩٦)

وكلاهما أفاد بثورته على روح التجديد فى القرن التاسع عشر لانه أوضح اضراراً كادت تخفى على الناس من حيث انتشار الروح المادى وتغلب الصناعة على الفن وإيثار السرعة على الاتقان . وقد أخذ كل منهما فى دعوة الناس إلى إيثار المصنوعات اليدوية على المصنوعات الآلية وكراهة العلم وتقبيح النهضة الاوربية العلمية وامتداح القرون الوسطى . وأخلص كل منهما لدعوته اخلاصاً عظيما هوالسبب الاساسى للفائدة التى جناها وما زال يجنيها الناس من مؤلفاتهما بل من حياتيهما

لما بلغ روسكين شبابه وجد فى لندن جماعة تدعى « أخوية الداعين إلى ماقبل روفائيل » وهم جماعة من الرسامين عمدوا إلى النهضة الاوربية فقبحوها وطعنوا فى العلم ودعوا الفنانين إلى ايثار الروح الدينى للقرون الوسطى . ولم

يأتوا بطائل فتشتتوا ولكن دعوتهم كانت بذرة لقح بها ذهن روسكين

وقد لا يكون بين كتاب الانجليز من أحسن الكتابة بهذه اللغة مثل هذا الرجعى العظيم روسكين . فقد جمع مافى اللغة من رقة وحلاوة وجمال فحواها فى أسلوبه . وما تقول فى رجل يصفه عدو له بالجنون ثم يعترف له بأنه يمكنه ان يصف السحاب فى مائة صفحة يقرأها القارىء فلا يسأمها بل يطلب المزيد ؟

ترك روسكين بلاده ورحل إلي البندقية مدينة القرون الوسطى وهناك ألف كتابه « أحجار البندقية » الذي يقول فيه :

« ان البناء القوطى فى البندقية هو ثمرة الايمان الطاهر والفضيلة العائلية

ـ وأيضاً : « ان البناء الحسن هو التعبير الظاهر عن الحال السليمة للمزاج وعن الشعور الاخلاق »

ثم يمضى بعد ذلك فيشرح جميع الاعمال الفنية مدة النهضة بأنها ثمرة الغدر وفساد الاسرة وسقوط الاخلاق

وهذا كله هراء بليغ . فان البناء أبعد الاشياء عن الدلالة على الاخلاق . وهذه بنايات المماليك فى القاهرة هى من الفخامة والجمال بحيث تناقض الحياة الاجرامية التى عاشها كثير من هؤلاء . وتاريخ البندقية التى مازال قصورها القديمة قائمة هو تاريخ الدسائس الدموية والسفالات العظيمة التى ارتكبها أصحاب هذه القصور . وانما كره روسكين النهضة لانها كانت الاصل فى الروح العلمى الذى ساد أوربا وأخذ مكان الروح الدينى . وكان رجلا متديناً لايطيق النزعات الجديدة التى تكتسح كل ما أمامها فلم يكن فى وسعه سوى السباب . وهو سباب أنيق يسمع له الناس لانه يتأنق فى عبارته ثم يغضون لهذا التأنق عن سخافاته . فلقد بلغ به السخف ذات مرة أن علل الكوارث التى تقع فيها بريطانيا بسخط الله عليها

ولكن روسكين كان مخلصاً فى دعايته يحض الناس على التمسك بالدين وكراهة المصنوعات الآلية والرجوع إلى الصناعة اليدوية والابتعاد من الروح المادى .

ورث ١٥٠٠٠٠٠ جنيه من والديه فحرمها على نفسه ولم ينفق منها مليما ووقفها على الاعمال الخيرية وعاش قانعاً بما يجنيه من قلمه . واتجه نحو الاشتراكية فأسس كليات للعمال فى الجامعات ورفع من شأن العمل حتى كان يأخذ الطلبة من أبناء الاغنياء فيؤلف منهم فرقة لتعبيد الطرق

ومهما قلنا فى روسكين وانتقصنا من قيمة الحملة التى حملها على الروح الحديث فاننا يجب أن نعترف بأنه يحسن التفكير حين ينتقص لنا من شأن السرعة . واننا عندما نركب القطار نستفيد سرعة فقط بينما نحرم فوائد السفر والتفرج التى نجنيها من الجواد أو من العربة التى تجرها الجياد . فهنا شىء للتفكير

اما وليم موريس الرجعى العظيم الآخر فان جهاده أبقى وأثره أعظم . فانه لقح الصناعات بالفنون وكان هو وروسكين سواء فى كراهة الآلات . ولكنه كان يمتاز على روسكين بأنه يرى الواقع ويسلم به ويقنع باصلاحه . فقد كان فى ذات نفسه يحب خط اليد ويؤثره عل خط الطبع ولكنه كان يرى آلة الطباعة شيئاً واقعاً لا فرار منه ، فكان يقنع بأن يكتب حروفا جميلة يسكبها ويقدمها لآلات الطبع فتتحسن الطباعة . وكان يرى أن الروح المادى يطغى فيجعل البنائين يبنون المنازل من أسخف المواد ويزينونها بالبهرج فصار هو نفسه يصنع الاثاث والف شركة لهذه الغاية لاتزال حية الى الآن غايتها الجمع بين الفن والصناعة أو الجمال والتجارة . ولهذا الرجعى أثره الجميل فى صناعة الآنية والسجاجيد وورق الجدران

وحارب الروح المادى بأن صار اشتراكياً يؤلف بل يبيع الكتب والرسائل الاشتراكية على قوارع الطرق

والآلة مع كل ذلك منتصرة تطغى علينا وتسوقنا بل تدفعنا دفعاً عنيفاً لاينجع فى وقفه مثل روسكين أو موريس . ولكنهما نجحا فى تنبيهنا الى وجوب العناية بالفن وتلقيح الصناعات الآلية به

بواعث التجديد

تبعث على التجديد بواعث كثيرة . ويصيب التجديد ميادين النشاط الانسانى جميعها سواء أكانت ثقافية أم حضارية

فقد يهتدى الذهن البشرى الى فكرة جديدة تكشف عن الدلالة لطائفة من المعارف بحيث تجعل المعرفة الميتة ثقافة . كفكرة التطور مثلا اهتدى اليها داروين . فكانت وما تزال نظاما انتظمت به المعارف البيولوجية ثم هنا يعد داروين مجدداً فى البيولوجية كما يعد فرود مجدداً فى السيكلوجية لأنه اهتدى إلى فكرة العقل الباطن . أو كما يعد ولسون مجدداً فى السياسة لأنه اهتدى الى فكرة عصبة الامم

ويصيب التجديد الحضارة كما يصيب الثقافة . فحياتنا الحضارية فى مصر قد تجددت فى نصف القرن الماضى بأكثر مما تجددت ثقافتنا . وذلك لاننا اصطدمنا بظروف جديدة اضطرتنا الى اتخاذ الحضارة الغربية والتسليم بها . فنحن ننتقل بالقطار والاتومبيل دون الجمل أو الحمار . ونحن نؤسس المؤسسات فى التعليم والقضاء والبريد والادارة على غرار الانظمة الاوربية دون الانظمة التى ورثناها من العرب أو من الشرق . ونحن فى كل ذلك مجددون لايكاد يوجد بيننا رجعى يقول بأفضلية الجمل على القطار أو خطة الالتزام القديمة فى جباية الضرائب على الخطة الحاضرة فى فرض الضرائب

وأعظم ما يبعث على التجديد هو تبدل الوسط . فاذا فرضنا مثلا ان جزيرة العرب قد حدث لها تبدل فجأة فانتقلت من اليبس والجفاف إلى البلل والمطر واستحالت صحراؤها القاحلة أرضاً زراعية فاننا ننتظر من العرب عندئذ أن يقلعوا من البداوة والرحلة ويأخذوا فى أساليب الزراعة والاقامة . ومن يفعل منهم ذلك يعد مجدداً ومن يجمد ويلزم البداوة يعد رجعياً لايستجيب للوسط الجديد

فالثقافة التجديدية فى مثل هذه الحال يجب أن تدعو إلى الاخـذ بالزراعة وتعلم أساليبها والنزول علي أخلاقها وهجران البداوة والاقلاع عما بق منها فى المعيشة والاخلاق

وقد حدث فى القرن التاسع عشر فى انجلترا ما يشبه هذا الانتقال . فان الحضارة الزراعية أخذت تتراجع وتتقلص بينما الحضارة الصناعية كانت تأخذ فى الغارة عليها . وهذه الحضارة الصناعية هي حضارة الآلات وما تستتبع من تبدل فى المعيشة والاخلاق . وهذا الانتقال كان يدق على أفهام الناس لا عامتهم فقط بل خاصتهم أيضاً . وكان هناك من يفهمونه ويدركون مغزاه ويقاومونه مثل جون روسكين ووليم موريس إذ أن كليهما دعا إلى ترك الآلات والرجوع بالناس الى العصور الوسطى والقناعة بالعمل اليدوى

وقد قلنا ان هذه الحضارة الصناعية كانت تغير على الحضارة الزراعية مدة القرن التاسع عشر . وهي ما تزال إلي الآن فى هـذه الغارة لما تستتم لنفسها النصر . فالدعوة التجديدية القائمة الآن فى انجلترا كما نفهمها من مؤلفات برنارد شو أو ه . ج . ولز . أو كما نراها أحياناً علي أبلغها فى مؤلفات برتراند روسل تدعو إلى ان نستبدل من ثقافتنا بمثل ما استبدلنا من حضارتنا . وهؤلاء الـكتاب وكثير غيرهم قد جعلوا من أدبهم وسيلة لان نعمد الى معيشتنا وأخلاقنا فننقح فيهما بما يوافق العصر الجديد عصر العلم والآلات والمادية

ولننظر الآن فى الوسط الزراعى وما يقتضيه . ثم نعود الى الوسط الصناعى فنبحث وجوه الفرق بينهما وهي الوجوه التى أخـذ أدباء انجلترا المجددون فى شرحها وحث الانجليز على اعتمادها دون سواها

فقد كان الناس الى القرن التاسع عشر يعيشون على مبادىء الحضارة الزراعية وكانت الصناعات يدوية العامل فيها أشبه بالمالك منه بالاجير . والمدن صغيرة كأنها القرى والانتقال بطيء لايساعد علي انتشار المصنوعات وتراكم رءوس الاموال فى بقع معينة هي المصانع الحديثة والمدن الـكبيرة . ولمثل هذه الحضارة أخلاق تلازمها هى الاخلاق التى ما زلنا نراها عندنا مثلا حيث لايجوز للمرأة

أن تستقل وتعمل لحسابها الخاص وحيث الايمان بالقضاء والقدر على أقواه وحيث الديمقراطية اسم بلا مسمى وحيث ترى العقيدة والتقاليد تأخذ مكان الرأى والاستنباط والنزول على العرف مكان الاستقلال والانفراد . وحيث تحترم الرابطة العائلية وتوضع فوق كل اعتبار وحيث للدين الحرمة الاولى فى تفكير المفكرين

كانت هذه حال انجلترا فى أوائل القرن التاسع عشر . ولكن رويداً رويداً أخذت الصناعة تطارد الزراعة ، والمدن تجذب اليها السكان فيهجرون القرى والريف . والصناعات اليدوية تموت ويحتشد العمال فى المصانع الكبيرة . وأخلاقنا هي ثمرة الوسط الذى نعيش فيه وهى تبع للاحوال الاقتصادية التى تلابسنا . ومن هنا فشا النزاع بين الاخلاق القديمة وبين الوسط الجديد . ومن هنا ظهر التصادم بين المحافظين الذين كانوا يرغبون فى الاخلاق القديمة فيطلبون من المرأة أن تكون زوجة فقط ومن الاولاد طاعة الآباء والارتباط بهم ومن الفقراء القناعة بالفقر ومن المفكرين النزول على العقائد الدينية والتسليم ، وبين المجددين الذين كانوا يرغبون فى أخلاق جديدة توافق البيئة الصناعية الجديدة. وهى أخلاق تدعو المرأة الى أن تكون لها شخصية مستقلة تعيش لنفسها أولا فترقي وتستمتع ثم اذا أرادت بعد ذلك فلتكن لزوجها وأولادها وأمتها كما تدعو العامل أن يواجه الوسط الصناعى الجديد بنظام جديد يحقق له الاشتراك فى الحكم والانتاج هو النظام الاشتراكى بل كما تدعو المفكرين الى النزول على مبادىء العلم والتسليم بنظرياته دون التسليم بالعقائد الموروثة أو العرف الاجتماعى . وإذن احتاج المجددون الى المصارحة واظهار الجمهور البريطاني على عيوب العرف والاخلاق القديمة والدعوة للاخلاق الجديدة . وأصبح الادب الانجليزى اجتماعياً فى نزعته يحاول الأديب أن يبتكر عن سبيله القيم الجديدة للأخلاق لكى يلائم بين البيئة الصناعية وبين معايش الناس

هذه هي المهمة التى أخذ الادباء الانجليز فى تأديتها للجمهور الانجليزى وما زالوا فى سبيل هذه التأدية الى الآن

بعض الاجانب

وأثرهم فى الأدب الأنجليزى

تجمع بين الأقطار الأوربية جامعة من الحضارة والثقافة . وهى جامعة تربطها فى العموميات من المزاج والنزعة إذ هى تشترك فى تراث الحضارة الرومانية والثقافة اللاتينية والاغريقية . وقد كانت جميعها أيام القرون الوسطى أشبه الاشياء بأمة واحدة تدين بالمسيحية وتكتب باللاتينية

ولكن لكل واحد من هذه الاقطار سماته الخاصة التى تميزه من الاقطار الاخرى فى حضارته وثقافته . فالنزعات السائدة الآن فى الادب الفرنسى تختلف جد الاختلاف عن النزعات السائدة فى الادب الانجليزى . ويشتد هذا الاختلاف حتى لتسمع من بعض المصريين الذين تثقفوا بالادب الفرنسى ان الانجليز لايعرفون الادب . وهو انما يزعم ذلك لبعد الشقة واختلاف النكهة بين الادبين ولانه يجد فى أدب الانجليز غير ما ألف وتعود فى أدب الفرنسيين . وليس هذا الاختلاف غريباً اذ هو يدل على الحيوية والاستقلال عند الامم الاوربية المختلفة من حيث أن كل أمة تنزع الى مثلها العليا وتتخذ طرقا خاصة دون أن تأبه لما عند غيرها من هذه المثل والطرق

ولكن التفاعل لاينقطع مع ذلك . فان الافكار تتلاقى وتتصارع ويحدث منها الامتزاج أو التنافر ، وقد تأثر الادب الانجليزى لهذا السبب بالنزعات الادبية فى أوربا وان كان هو فى الارجح أقل الآداب الاوربية تأثراً بغيره . ونحن نجد فى الادب الجديد ثلاثة رجال لهم الأثر الاكبر فى التفكير عامة وفى الادب خاصة عند الانجليز

وأول هؤلاء هو برغسون الفرنسى فان له أثراً واضحاً فى تجديد الافكار

الدينية والمذاهب الداروينية . فقد استطاع أن يؤثر فى العالم الادبى وكانت طعنته هى الطعنة النجلاء التى يقف دونها المادى حائراً ان لم نقل مهزوما . وايمان برنارد شو يكاد يكون كله منقولا عن برغسون الذى يقول ان الحياة هى الخالقة وانها فى صراع مستمر مع المادة وانها دائبة فى التطور . واذا كان هناك شىء يمكن التجديد الدينى الآن أو إذا كان ينتظر شىء منه فى المستقبل فانه لن يعدو هذه الافكار البرغسونية الوضعية .

وثانى هؤلاء الاجانب هو فرود النمسوي . فقد انسلت نظرياته إلي الادب الانجليزى وأصبح « العقل الباطن » موضوع الادباء الجدد مثل لورنس وغيره . وعماد الادب الجديد الذى أعقب الحرب الكبرى هو التحليل النفسى والعقل الباطن

أما ثالث هؤلاء فهو ابسن وهو بلا شك أعمقهم أثراً فى الادب الانجليزي. وخاصة أدب الدرامة . فان برنارد شو نشأ عليه وشدا منه وبنى لنفسه شهرته الاولى على طريقته . والدرامة الانجليزية كلها تعترف لابسن بالاثر الكبير وتخطو فى سبيله وتتخذ طريقته كلما استطاعت الى ذلك ولذلك يحسن بنا هنا ان نلم بطرف من حياته ومؤلفاته

كان ابسن كاتباً أسوجياً التحق بالتمثيل واحترف ادارة أحد المسارح ، ثم رحل عن بلاده الى ألمانيا حيث عاش سائر عمره يؤلف للمسرح الاسوجى فتترجم جميع مؤلفاته الى اللغات الحية فى أوربا فتبعث الحياة للمسارح وتجعل الدرامة موضوع مناقشة بين الادباء بل بين الصحفيين والجمهور . وقد استطاع إبسن ان يجعل المسرح بدرامته ميداناً للافكار والآراء لانه خص الدرامة بغاية لم تكن تعرفها هى البحث الاجتماعى ونقد العادات والاخلاق والسياسة . وقد تناول موليير هذه الابحاث فى فرنسا فى القرن الثامن عشر . ولكن الذين خلفوه فى فرنسا بل فى أوربا لم يستأنفوا عمله ولم يتجهوا نحو غايته فبقيت الدرامة راكدة لاتنتعش قد انقطعت عن الحياة أو كادت فلما جاء إبسن أعاد لها هذه الصلة وجعل المسرح ميداناً لنقد المعايش وبحث الاجتماع وكانت كل

درامة من دراماته « مسألة » اجتماعية تحتاج إلى الحل

والدرامة الابسنية هي قصة عائلية تحتوى مشكلة وتنتهى بالرجاء أو باليأس وغاية المؤلف فى جميع دراماته أن يكون لابطاله « شخصية » فهم ينتحرون إذا لم يستيطعوا تحقيق هذه الشخصية أو هم يتركون لهذه الغاية أهلهم وأولادهم

ولننظر فى إحدى دراماته نظرة إلمام لكى نقف منها على الغاية التى رمي اليها ابسن . ففى « بيت عروس » نجد زوجة تحب زوجها حباً عميقاً ويبدو لها من مسلك زوجها انه هو أيضاً يحبها . وقد دفعها هذا الحب الى أن ترتكب جريمة التزوير لكى تحصل على مبلغ من المال تقدمه لزوجها حتى يرحل عن المدينة ويستطيع التعالج فى جو أوفق . وتنوسيت هذه الجريمة التى لم يكن زوجها يعرف عنها شيئاً . ولكن شخصاً آخر كان يعرف هذا السر المؤلم وقد استطاع أن يهدد به هذه الزوجة

ويقف الزوج علي السر فيغضب وهو فى غضبه لايذكر سوى نفسه والعار الذى سيلحقه من فضح هذه الجريمة التى ارتكبتها زوجته . يذكر نفسه وكرامته وشرفه ولا يذكر شيئاً من ذلك عن زوجته . ويريد ابسن أن يقول ان الزوجة هى « عروس » يلعب بها الزوج وانها ليست رفيقته . وقد يكون فى تصويره بعض المبالغة . ولكن ليس هناك شك أيضاً فى انه قد وضع للمتفرجين مسألة تستحق المناقشة والحل وهى :

هل يجب على المرأة أن تكون انساناً أولا أو يجب عليها قبل كل شيء أن تكون زوجة وأما ؟

هذه هي المسألة التى يعمد ابسن اليها فيحلها أو يوضحها فى جرأة صارخة موجعة . ومن الحوار التالى يتضح للقارىء موقف الزوجين بل موقف الحياة العائلية بين القرنين : القرن التاسع عشر والقرن العشرين

وهذا الحوار يأتى عقب اكتشاف الزوج لجريمة التزوير التى ارتكبتها زوجته وغضبه لكرامته . ثم ارتياحه الى ان ذلك الشخص الذى هددها

بالفضيحة قد أرسل خطاباً يرجع فيه عن عزمه على فضح هذه الجريمة . وعودة الزوج الى مصالحة زوجته . ولكن الزوجة تترك الغرفة وتعود وقد استعدت لترك المنزل

هلمر : ماهذا ؟

نورا : لقد مضى على زواجنا الآن ثماني سنوات . الا يخطر ببالك اننا نحن الاثنين زوجا وزوجة نتحدث لاول مرة حديثاً جدياً ؟

هلمر : ماذا تعنين بالحديث الجدى ؟

نورا : فى هذه السنوات الثمان بل قبل ذلك منذ تعارفنا لم نتبادل الحديث عن موضوع جدى

هلمر : وهل كان من الممكن أن أخبرك كل يوم عن همومي التى لم تكونى تستطيعين مساعدتى على تحملها ؟

نورا : لاأتكلم عن هموم العمل أنما اعنى اننا لم نقعد معاً مرة لكى نتحدث فى جد ونصل الي الاصول والاعماق

هلمر : ولكن ياعزيزتى نورا ماذا كنت تفيدين من مثل هذا الحديث ؟

نورا : هذا اذن هو ما ظننت فيك . انك لم تستطع قط ان تفهمنى . هلمر . لقد ظلمت كثيراً . ظلمنى أبى أولا ثم ظلمتنى انت بعد

هلمر : ماتقولين ؟ نحن الاثنان ؟ نحن اللذان أحبناك أكثر من أي انسان ؟

نورا : (تهز رأسها) انت لم تحبنى قط . وكل ما عندك انك يلذ لك أن تظن انك تحبنى

هلمر : ماهذا الذى أسمعه منك يانورا ؟

نورا : هذا هو الحق أقوله لك . لما كنت ببيتنا عند أبى كان يخبرنى عن آرائه فى الاشياء فأاخذها منه . وكنت اذا اختلفت معه أنكرت أن لى رأياً آخر خشية أن يكره منى ان يكون لى رأى . وكان يدعونى بأسم العروس وكان يلعب معى كما كنت أنا ألعب وأنا طفلة مع عروسى . وعند ماجئت لكى أسكن فى دارك —

هلمر : ما أغرب هذا التعبير الذى تعبرين به عن زواجنا

نورا : أعنى انى أخذت من يدى أبى الى يديك . وانت شرعت ترتب كل شىء كما تهوى وكما يشاء ذوقك . وأخذت أنا عنك هذا الذوق أوادعيت انى أهوى ما تهوى ولست أعرف أيهما فعلت أولعلنى فعلت هذا مرة وذاك مرة أخرى . وعند ما أراجع نفسى أرانى كأنى قد عشت هنا كأنى أمرأة مسكينة لاأملك شيئاً . أجل لقد عشت أؤدى لك الحيل لانك ترغب فى ذلك . لقد جنيت انت وابى علي واليكما أنتما الاثنين اعزو هذه الحال وهى ان حياتى هباء لاقيمة لها

هلمر : أى شىء أبعد عن العقل من هذا الكلام ؟ ما أقل شكرانك ؟ ألم تكونى سعيدة هنا ؟

نورا : لم أكن سعيدة وانما كنت مرحة فقط وكنت انت تلاطفنى ولكن بيتنا لم يكن سوى ملعب ، فقد كنت لك زوجة تلعب بها كما كنت عند أبى طفلة يلعب بها وكما أصبح أطفالى لعبتى بعد ذلك . ولما كنت أطرب عند ما كنت تلعب معى كذلك كان يطرب الاطفال عند ما كنت ألعب معهم . وهذا زواجنا

هلمر : أنت مصيبة فى بعض ماقلته ـ مع ما فى قولك من المبالغة ـ ولكن سيكون المستقبل غير الماضى . سينتهى اللعب ثم تبدأ الدروس

نورا : أى دروس ؟ دروسى أم دروس الاطفال ؟

هلمر : دروسك ودروس الاطفال ياعزيزتي نورا

نورا : ولكنك للأسف لست الرجل الذى يستطيع تربيتى لكى أكون الزوجة الحقة له

هلمر : وتقولين ذلك ؟

نورا : ثم أنا . كيف أستطيع أن أربي الاطفال ؟

هلمر : نورا !

نورا : ألم تقل وقت غضبك أنك لاتثق بى لتربية الاطفال ؟

هلمر : وقت الغضب : كيف تهتمين بذلك ؟

نورا : ولكن الواقع انك كنت محقاً لانى غير كفء لهذا الواجب. وعلى انا واجب يجب أن أقوم به أولا وهو أن أجتهد وأربي نفسى ولست أنت الرجل الذى يمكنه مساعدتى فى ذلك . فعلي أن أقوم بنفسى بهذا العمل وهذا هو السبب الذى يدعوني لان أتركك الآن

هلمر : (يهب واقفاً) ماتقولين ؟

نورا : يجب أن أقف وحدى وأعتمد على نفسى إذا كنت أريد أن أفهم نفسى كما أفهم كل شيء حولى ولهذا لايمكننى أن أبقى معك بعد ذلك

هلمر : نورا ، نورا !

نورا : سأخرج الآن من البيت

هلمر : تتركين بيتك وزوجك وأولادك ولا تبالين ما سيقوله الناس عنك

نورا : لاأبالى ما سيقوله الناس ، انما أفعل ما أراه ضروريا

هلمر : هذا عجيب ، أهكذا تهملين أقدس الواجبات ؟

نورا : وما هى أقدس واجباتي ؟

هلمر : وهل أنت فى حاجة إلى أن أخبرك ؟ أليست هى واجباتك نحو زوجك وأولادك ؟

نورا : عندى واجبات لاتقل عنها قداسة

هلمر : أى واجبات هذه ؟

نورا : واجباتى نحو نفسى

هلمر : أنت زوجة وأم قبل كل شيء

نورا : لست أصدق هذا الآن . لاني أعتقد انى قبل كل شيء إنسان كما انت انسان . أو على الاقل يجب ان اجتهد حتى أصير انساناً . وانى أعرف أن معظم الناس يؤيدونك فى رأيك وان مثل رأيك هذا يقال به فى الكتب ، ولكنى لن اقنع بعد الآن بما يقوله الناس أو بما تقوله الكتب انه يجب على أن أفكر بنفسى وأفهم

* * *

هذا هو شيء من الحوار الذى يدور بين الزوجين . وهو كما يرى القارىء ينتهى بأمرأة هى زوجة وأم بأن ترفض الزوجية والامومة لكى تبدأ فى تربية نفسها كى تكون انسانا

ولكن كيف يكون ذلك ؟

ان الدرامة تنتهى بايصاد الباب ولكن إلى أين تذهب نورا وما هو برنامجها فى تربية نفسها ؟

ستذهب بلا شك إلى أحد المصانع أو المكاتب لكى تتعلم وتعمل وتكون لنفسها شخصية جديدة كانت إلى الآن فانية فى الزوج والاولاد . ولا بد انها ستلقى المصاعب وتكابد المشقات فى هذا الطريق الوعر الجديد ولكن هذه الشخصية التى تنشدها لن تتربى إلا بهذه المصاعب وبما تتعلمه من الفشل والنجاح

وهذه هي المرأة الاوربية الجديدة . وإبسن هو لذلك حجر الزاوية فى الأدب الأوربى الجديد وخاصة فى الأدب الامريكى والانجليزى . ونورا التى كانت خيالا أو أملا يتحرك على المسرح سنة ١٨٩٠ هى الآن حقيقة نرى من اشباهها الآلاف فى لندن ونيويورك وبرلين كما نرى ان المسرح بها وأمثالها قد أصبح مدرسة لدرس الحياة

اثنامه من الرواد

ليس من الممكن أن نذكر جميع الادباء الذين ساهموا فى حركة التجديد الانجليزي وكل مانستطيعه ان نذكر الاعيان . وقد يكون فى الترجمة المفصلة المسهبة لواحد من هؤلاء الاعيان مايبصر القارىء بالنزعات التجديدية ويقفه على أسبابها أكثر مما يكون فى ايراد التراجم المختصرة وسرد الاسماء والمؤلفات

ولكن الاقتصار على ترجمة أو ترجمتين مع مافيه من الفائدة اذا عمدنا الى الاسهاب والاستيفاء لابد ان يرافقه نقص فى الاحاطة بجملة المجددين . وهو نقص نضطر اليه على سبيل التضحية

فلا بد لنا ونحن نذكر الحركة التجديدية ان نهمل دكنز وسونبرن وأوسكار وايلد وأمثالهم من رجال العصر الفكتورى الذين ساهموا بالقليل أوالكثير فى الحركة التجديدية . والشعور بالتضحية يشتد هنا عند ذكر دكنز (١٨١٢ — ١٨٧٠) فان هذا الكاتب العظيم استجاب للوسط الصناعى الجديد بقصته « أيام الشدة » وحسبك ان تقرأ له هذا الوصف للبلدة الصناعية « كوكتاون » لتعرف مقامه فى ميدان الاصلاح الاجتماعى وكيف انه استطاع ان يجعل أدبه وسيلة لخدمة الانسانية . قال :

« كانت بلدة قد بنيت من الاجر الاحمر أو من الاجر الذى كان يكون أحمر لولا طبقة الدخان والرماد التى تكسوه . ولكن كوكتاون كانت بهذه الطبقة بلدة تبدو بجدرانها الحمراء السوداء فى ألوان غير طبيعية كأنها وجه رجل متوحش قد طلاه بالادهان والاصباغ

« وكانت حاشدة بالآلات والمداخن السامقة التى كانت تنساب منها ثعابين الدخان يتحوي بعضها على بعض فلا نهاية لتحويها ولا افتكاك

« وكانت بها قناة سوداء ونهر تجرى مياهه حمراء بصبغة كريهة الرائحة .

وكان بها أكوام من المبانى التى تملأها النوافذ . ثم كان بها عجيج وارتجاف طول النهار حيث كان كباس الآلة البخارية يهبط ويصعد كأنه رأس فيل قد أصابه الجنون . وكان بها عدة شوارع كبيرة كل منها شبيه بالآخر يقطنها ناس كلهم متشابهون يدخلون بيوتهم ويخرجون منها فى وقت معا يؤدون عملا واحداً . وكان كل يوم عندهم يشبه يوم أمس ويوم غد وكل عام يشبه السنة الماضية والسنة القادمة »

ولم يصف أحد من الكتاب الاثر السيء الذى أحدثته الصناعة الآلية فى المدن كما وصفه دكنز . ومن هذه النبذة يمكن القارىء أن يرى التفاعل بين الحياة والادب وكيف ان الاديب يخدم الاصلاح الاجتماعى بأدبه ويكشف عن مساوىء الصناعة . ودكنز من هذه الناحية يعد رائداً فى الادب الانجليزى الجديد وقد ترك تراثاً لمن خلفه فى القصص هو « القصة الاجتماعية » التى ترى على أوفاها عند ولز . بل هذه النبذة التى نقلناها عن دكنز لو انها قرئت فى غير أصلها لاخطأها الناقد ونسبها الى ولز

وهنا يجب ان نقف بالقارىء قليلا لكى نقول ان أسمى الامثلة من القصص أو الدرامة الانجليزية انما هو وسيلة لخدمة الاجتماع وليس غاية فى نفسه . وهناك مثل ميريديث أو والتر باتر أو أوسكار وايلد من نظروا إلى الفن نظرة فرنسية وجعلوا الجمال غاية الادب كما هو نظر أناطول فرانس . ولكن هذه النظرة بعيدة اجمالا عن روح الادب الانجليزى . وان كنا نعثر عليها من وقت لآخر ونجد منها القليل من الامثلة

وقد كان أناطول فرانس يقول عن الادب انه لا يتوخى الحقائق لان توخى الحقائق انما هو من شأن العلم اما الادب ففن من الفنون . والقصة يجب ان تكون كالصورة أو التمثال ليس وراءها غاية وقد سار هو على هذا المذهب . وهو مذهب جدير بالاحترام . وإذا صدق فكل ما نقوله عندئذ ان الادب الانجليزى يتجه بكل صراحة نحو العلم . والواقع أننا نجد فى انجلترا عدداً كبيراً

من الادباء الذين يصح لنا ان نسميهم أيضاً علماء

ومن هؤلاء صمويل بطلر (١٨٣٥ — ١٩٠٢) وهو الرائد الذى يقول برنارد شو انه تعلم منه ، فانه مزج بين الادب والعلم والف فى القصص كما الف فى نظرية التطور . وهو يعد من الثائرين على العصر الفكتورى من حيث تنديده بالحياة العائلية والعرف والكنائس . اما فى العلم فيمكن أن نرى فيه رأى برجسون الفرنسى ، فانه كافح داروين فى نظره الآلى للحياة وأبى إلا أن يرى فيها قصداً تقصد اليه بل غاية سامية تسموا اليها . فعند داروين ان الاحياء تتطور لأنها تصطدم بحوادث يموت فيها العاجز ويبقى القوى المحتال ، فالتطور إذن خبط عشواء . ولكن بطلر لم يستطع قبول هذه النظرية وأبى إلا أن يؤمن بأن فى الحياة حكمة ترشد الاحياء نحو غاية سامية قد لا نستطيع ان نعينها من الآن ولكن يمكننا أن نلمحها من سيادة الانسان على سائر الكائنات . وبعبارة أخرى نقول ان داروين مادى فى تفسيره للتطور أما بطلر وبرغسون فحيويان يؤمنان بالقصد والغاية فى الحياة . والرأى السائد الآن هو رأى بطلر وليس رأى داروين

أما قصصه فمكتسبة من اختباراته ، ولذلك ننقل منه هذه النبذة التى كتبها عن والده

« لم يحبنى كما انى لم أحبه . ولم اذكر وقتاً لم أكن أخشاه وأكرهه ، وكم من مرة كنت ألين وأقول لنفسى انه رجل طيب لا بأس به ولكننى لا أكاد أفعل ذلك حتى يعود فيصدمنى ويملأ نفسى مرارة نحوه . ولست أشك فى أنى سلكت معه مسلكا يبعثه على الاستياء منى كما لست أشك فى انى ارتكبت معه ذنوبا كثيرة ولست واثقاً من ان اخطاءه كانت أكثر من اخطائى . ولكن الواقع ، بصرف النظر عن هذه الاخطاء ، انى بقيت سنوات طويلة لم يمر بى يوم إلا وكنت أفكر فيه مرات وأرى فيه الرجل الذى يقف ضدى ويرى الجانب السيء بدلا من الجانب الحسن فى كل ما أقوله أو أعمله »

هذا الوسط العائلى هو الذى حاربه بطلر بقصته « طريق اللحم » وهو الذى حاربه بعد ذلك برنارد شو

والشاب أو الفتاة سواء فى بريطانيا أو الولايات المتحدة هما الآن أكثر فتيان العالم استقلالا عن الأسرة . ومن المبالغة ان نقول ان هذا الاستقلال يعزى إلى الادب لأنه فى الحقيقة يعزى إلى الوسط الصناعى الجديد الذى جعل المرأة تعمل فى المصنع أو المكتب وتستقل بمعاشها عن أهلها ولا تكاد لذلك تبالى طاعة الأبوين . وكذلك هو يعزى إلى وفرة الملاهي الجديدة مثل الاتومبيل والسينما توغراف . وكلاهما عمل لتفكيك الاسرة الانجليزية ولسنا الآن نجد أبا يشبه ذلك الذى نكب به صمويل بطلر ولكن مؤلفات بطلر تدلنا على مقدار الجمود فى ذلك العرف أو الأخلاق الانجليزية مدة العصر الفكتورى . وهو عرف كان يفشى الشقاء فى الاسرة

لقد ذكرنا هنا دكنز وكيف سخط على الوسط الصناعى الجديد ووصفه أدق وصف وأبشعه . ثم ذكرنا صمويل بطلر وكيف كره الحياة العائلية وأنكرها . ولكن القارىء المصرى لايمكنه إلا أن يعترف بأن هذا الوسط الصناعى هو الذى كان العلاج الحقيقى لجمود العائلة الانجليزية لأنه فك قيودها ونقص الاستبداد الأبوى بالحرية الجديدة التى لقيتها الفتاة الانجليزية فى الصناعة وبالملاهى الكثيرة التى جعلت الشاب ينشد سلواه خارج البيت

إن للصناعة وجوهاً سيئة ولكن لها وجوهاً أخرى حسنة ومن حسناتها هذه الحرية التى يتمتع بها الآن الشبان والفتيان فى العالم المتمدن

المنحطون فى الادب الانجليزى

فى أوائل هذا القرن نشر ماكس نورداو كتاباً عن « الانحطاط » تناول فيه جماعة كبيرة من الادباء والشعراء بالنقد واتهمهم بأنهم انما نزعوا نزعاتهم الخاصة لانهم منحطون . فهم مجانين أو قد اقتربوا من الجنون ونزعاتهم انما هى نزعات العقل المضطرب المفتون . ولذلك فان كل ما يدعون اليه من فلسفة أو اصلاح ليس فى حقيقته وعند التأمل سوى هراء الابله أو هذيان المحموم

وقد ذاع هذا الكتاب لان التهمة طريفة والرأى بدعة وكلاهما يلفت النظر ويبعث على التأمل . وقد مضي على نشر هذا الكتاب نحو ثلاثين سنة تكفى لتأييد نظرياته أو ادحاضها . والواقع الذي نراه الآن انها قد ادحضت جميعها . وان هؤلاء المنحطين الذين ذكرهم ماكس نورداو أما أن الجمهور قد تناساهم لانهم لم يكونوا من القدرة والكفاية بحيث يستحقون دوام الذكر واما انهم قد ثبتوا لان كفايتهم لم تزعزعها التهم التى وجهها اليوم هذا الطبيب الأديب . وحسب القارىء أن يعرف أن نيتشه وتولستوى وإبسن وضعوا فى مقدمة المنحطين عنده وهم الآن من زعماء النهضة الأوربية

ولكن قبيل ماكس نورداو أى فى أواخر القرن التاسع عشر ظهرت طائفة من الكتاب فى فرنسا وانجلترا يجوز لنا أن نسميهم بالمنحطين . بل لقد عرفت الطائفة الانجليزية نفسها وارتضت هذه الصفة وأطلقتها علي نفسها

والمنحطون فى الأدب الانجليزى يمتون بنسب الى المنحطين فى الأدب الفرنسى وقد تتلمذوا إلى حد ما لبودلير وجوتييه . ولكنهم كانوا مع ذلك مستقلين يجدون فى البيئة الانجليزية نفسها السم والدسم لأدبهم . وقد أخصبت بهم انجلترا فى السنوات الثلاثين بين ١٨٧٠ و١٩٠٠

ولكى نفهم المنحطين فى انجلترا يجب أن نعود فننظر نظرة عاجلة فى أبى

نواس . إذ ليس هناك شك فى أن هذا الشاعر العظيم كان منحطاً وهذه حياته وأشعاره توضح لنا هذا الانحطاط . وإذا نحن تأملنا البواعث التى بعثت عليه الفيناها تتلخص فى « رد الفعل » الذى شعر به هذا الشاعر وهو يعيش فى مدينة تحتوى على صنوف من فتنة المدن وملذاتها ثم ينظر فيجد أن الشعر لايزال بدوياً لاينطبق على حال هذه المدن . فهو ثائر على الشعر البدوي يدعو الى حياة المدينة وملذاتها وهو فى ثورته يبالغ ويمعن لأنه يريد الانتقام . وكلما أمعن وبالغ تورط فيما يتجاوز صحة الفن وسلامة النظر . فهو هنا مجدد . ولكنه فى تجديده منحط

وكذلك الحال مع هؤلاء المنحطين الانجليز فانهم ثاروا على أدب القرن التاسع عشر وبالغوا فى الثورة الى حد الانتقام للحديث من القديم فتورطوا فى أشياء لاتختلف عما تورط فيه ابو نواس حتى لقد مارس بعضهم بعض رذائله وحتى لقد دعوا الى المدينة مؤثرين حياتها على حياة الريف يفضلون جمالها وضوضاءها على جمال الطبيعة وسكونها . كما آثر هو المدينة على البادية . ولكنهم كانوا حتى فى هذا الانحطاط مخلصين . وهم الآن بعد زوال أشخاصهم قد ذهب زبدهم وبقى منهم ما ينفع الناس

كانت انجلترا فى القرن التاسع عشر منكوبة بنزعتين احداهما سلطان العرف والعادة والثانية الروح الطهرية التى كانت تجنح الى النسك وكراهة الملذات الفنية وكلتا النزعتين تدعوان فى النهاية الى الانكفاف والاحجام والخوف من التجارب والبدع . ولذلك حدث « رد الفعل » فى نهاية القرن التاسع عشر وكان شديداً عنيفاً حتى لقد انتهى عنه بعض القائمين به بالسجن أو الموت المبكر أو التشريد . ولكن مع كل ذلك بقى من هؤلاء المنحطين أثرهم فى الادب الانجليزي الحديث . ففى انجلترا الآن نهضة تنزع نحو الاغريق وتدعو الى الجمال وفيها ثورة على العرف وجرأة على الابتكار فى الاخلاق وبها نزوع الى التجربة والاقتحام وكل هذا يرجع الي هؤلاء المنحطين الذين احترقوا بالنار لكى يعرفوا الناس فوائدها

وأول هؤلاء المنحطين هو والتر باتر الذى دعا الي الوثنية الاغريقية وفتن

الناس بالنزوع الى اللذة والجمال وهو القائل مامعناه اننا يجب أن نختبر الاختبار ونجرب التجربة ولكن ليس لكى نجنى منهما ثمرتهما فنزداد حكمة وانما علينا أن نختبر ونجرب للذة الاختبار والتجربة وحسبنا ذلك منهما . وهذا مذهب مخيف لايستطيع أن يتحمل قائله عواقبه أو يعمل به كله . ولكنه يدل على « رد الفعل » للقرن التاسع عشر

أما المنحط الثانى فهو أوسكار وايلد الذى كان يتأنق فى أسلوبه وحديثه . وقد دفعه التأنق الى الشذوذ . وكما أن الكاتب المتأنق يتحرى اللفظة النادرة لبريقها أو رنينها كذلك هو صار يتحرى الشذوذ فى ملذاته وينزل على رأى باتر فى توخى التجربة أو الاختبار للذة فقط . واختياره لقصة سالومة ويوحنا المعمدان يدل القارىء على هذا الذوق الذى ينشد الجمال الشاذ ويعشق الموقف عند أزمة العواطف وهزيمة العقل أمام الشعور

وكلاهما أى والتر باتر وأوسكار وايلد يدعوان دعوة جديدة هى التعمق فى الحياة . فان عامة الناس يعيشون على السطح يلمسون من الحياة أقل تجاربها وأبسطها ولا يكادون بل منهم من ينكف ويحجم كأنه راهب يخشى الاقتحام والانغماس . ولكن هذه الحياة لايمكننا أن نصل منها الى اللباب والصميم حتى ننغمس فيها ، ننغمس فى الحياة كما ننغمس فى اللذة ، وانما يكون ذلك بالتعمق والتوغل فى الاختبارات والتجارب

هى دعوة وثنية أغريقية يمكنها أن تثمر الثمرة المرة كما تثمر الثمرة الحلوة . وقد نستطيع أن نرى فى قصة جرانت الين « المرأة التى فعلت » مثالا من ثمرات هذه الدعوة . فهو هنا يصف لنا فتاة ترفض الزواج استبقاء لحريتها وثورة على العرف

وقد يعد الانسان هذه القصة كما يعد قصة دوريان جراى لاوسكار وايلد من الثمرات المرة لهؤلاء المنحطين . ولكن كل واحد من هؤلاء المنحطين قد ترك أثراً حسناً فى الادب الانجليزى الى جانب مانظنه آثاراً سيئة . فان المسرح الانجليزى مثلا قد ارتقى بفضل أوسكار وايلد الذي يمكن أن نقول انه مهد

لبرنارد شو بتعويد الناس الحوار البارع بين الممثلين والانتقاد الاجتماعى عن سبيل الفكاهة اللاذعة . وكذلك ولتر باتر مازلنا الى الآن نرى أثره فى الطبقة الجديدة من الكتاب مثل لورنس والدوس هوكسلى

وللمنحطين — كما هو المنتظر — شأن خطير فى الأدب الفرنسي . وللمنحطين الانجليز صلة قوية بهم حتى لقد ألف أوسكار وايلد احدى دراماته « سالومة » باللغة الفرنسية . ولكن هؤلاء الانجليز بادوا ولا يزال الانحطاط حياً فى فرنسا كما نرى فى مثال أندريه جيد . ومهما بلغ المنحط الانجليزى فانه لم يصل الى مستوى بيير لوتى الذي كان يدهن وجهه بالمساحيق والاصباغ ويسلك مسلك أبى نواس فى شبابه

ويمكن أن نلخص السمات التى اتسم بها المنحطون فيما يلى :

١ — الدعوة الى الجمال بلا اعتبار للأخلاق أو العرف

٢ — ايثار المدينة والصناعة على الطبيعة والسذاجة

٣ — توخى اللذة حتى ولو كانت شاذة تخالف المألوف فى الطبيعة

٤ — وضع الحياة الحسية فوق الحياة الذهنية

٥ — ايثار الفن على الطبيعة بل على الحقيقة

كبلنج . شاعر الاستعمار

فى انجلترا الآن ثلاثة من الادباء يشهد لهم قارئهم بأنهم دعاة عظماء للرجعية يتافحون عنها فى بلاغة وقوة وإيمان . ومن هؤلاء اثنان يكرهان العصر الحديث قلبا وقالبا هما تشسترتون وبيلوك . وكلاهما كاثوليكى يكره بدعة البروتستنتية ولو قام جهاد دينى لقمع هذه البدعة لتجند كلاهما فيه . ثم هما يحنان حنينا عظيما الى القرون الوسطى ويتغنيان بها كأنها الجنة المفقودة فهما يذكران منها مثلا نظام « الطوائف » ويتحسران على زواله . ويذكر بيلوك النظام الاقطاعى بالاعجاب . وكلاهما يكره مذهب داروين وينكره بلهجة الجزم التى ينكر بها المتدين عقائد خصومه . وهما يدافعان عن البابا والكاثوليكية كما يدافعان عن عصر الصناعات اليدوية

أما الرجعى الثالث فهو كبلنج شاعر الامبراطورية أى شاعر الاستعمار . وهو يختلف من الاثنين السابقين من حيث أنه يؤمن بالقرن العشرين . وهو من الشعراء الذين يستطيعون ان يؤلفوا القصائد فى مدح الاتومبيل والقطار والتلغراف . ولكنه مع ذلك رجعى يكره النزعات الانسانية الجديدة إذ هو داعية بليغ من دعاة الحرب لا يعرف عصبة الامم ولا يؤمن بتحقيق السلام . وهو نقيض « المنحطين » من حيث انه يجعل الفن وسيلة لخدمة الاستعمار البريطانى فى حين انهم كانوا يجعلون الفن غاية . وهو مع إيمانه بالحضارة يكره منها نعومتها وما فيها من أساليب التطرية ويكتب عن الغابة وقتال الحيوان والانسان كأنه يعيش فى العصور البدائية . وقد حام المنحطون ولعبوا بفكرة الترف والتطرية ولكنه هو لا يعرف من الرجال سوى الفحل الممتلىء بالرجولة وهو إذا انحط فانما يتجه انحطاطه نحو الاعجاب بالرجل المتوحش وليس بالرجل المترف الناعم

نشأ هـذا المؤلف بالهند واكتسب مزاجا خاصا بالاقامة بين الجاليات الانجليزية فى ذلك القطر العظيم الذى يشبه القارة . فهو انجليزى يحتقر الهنود ويظن أنهم هم والمصريون والبوير والزنوج لم يخلقوا وليس لوجودهم معنى أو مغزى إلا ان يخدموا شعب الله المختار أى الانجليز . وهو صاحب هذه الكلمة الاستعمارية المشهورة : « أنهم لا يعرفون انجلترا من لا يعرفون سوى انجلترا » يعنى بذلك ان عظمة الانجليز تتضح فى مستعمراتهم التى لا تغيب عنها الشمس

فهو يعجب بالورد كرومر ويعده من عظماء العالم وينسى أنه صاحب فجيعة دنشواى وانه ارصد حياته لكى يعوق أمة كبيرة عن التقدم . وأنه كان يبتز أموالها لدولته ويدعى حماية عمالها وهو يعرف ان هؤلاء العمال مرضى بالوان من الامراض وعلة هـذه الامراض هى الفاقة . وهو يعجب بسسل رودس لانه ارتكب من الجرائم وجر من الويلات على البوير ما كان يستحق عليه ان يشنق لو انه عومل معاملة المتمدنين . ولكنه يعجب بكرومر ورودس لانهما انجليزيان استعماريان وينسى الانسانية والشرف والمروءة إذا ذكر المصريين أو البوير

وهو مع براعته النادرة فى قرض الشعر وسمو الخيال يكاد الانسان يخرجه من زمرة الادباء كلما تأمل البواعث التى تبعثه على تأليف قصيدة أو قصة . فان الاديب يؤمن بالحرية الفكرية إذ هى دينه الذى يجب ان يدافع عنه مدى حياته . ويؤمن بالانسانية التى هى موضوع أدبه . ولكن كبلنج يخون الاثنين ، يخون الحرية ويخون الانسانية . وهو قبل كل شىء يدعو الى السيف والنار ويتغنى بالمدمرات والغواصات وهو فى انجلترا بمثابة تريتشكه فى المانيا مع فرق واحد وهو ان صوته لا يزال عاليا لان انجلترا خرجت من الحرب ظافرة بينما صوت تريتشكه قد خفت عندما انهزمت المانيا

وقلما تخلو أمة من الوطنيين الادباء يضعون وطنيتهم فوق ادبهم . ولكن

الوطنية إذا احتدت واحتدمت صارت مرضا يشبه الحمى فى نوباته ويدفع الى الهذيان . وقد كان تريتشكه الالمانى يدعى ان العالم كله يجب ان يخضع لالمانيا . وكان تشمبرلن « الانجليزى المتألمن » يدعى أن العبقرية والاختراع والمثل الاعلى كل هذه ثمرات المانية حتى السيد المسيح نفسه كان فى زعمه المانيا . . .

وكبلنج لا يهذى كل هذا الهذيان ولكنه يتغنى بالامبراطورية والاستعمار . ويتكلم عن عبء الرجل الابيض كانه يعنى مايقول ويؤمن به وكان الاستعمار لم يخترعه الرجل الابيض الا لخدمة السود والصفر والسمر من بنى الانسان وهم لذلك عبء عظيم يحمله الانجليزي والفرنسى بدافع شريف من دوافع المروءة والانسانية

وهذه الوطنية الحادة المحتدمة هى التى بعثت كبلنج على أن يقول مدة الحرب الكبرى هذه الكلمة الكافرة : ان العالم يسكنه اثنان هما النوع البشرى والالمان

وبنفس هذه الروح سبق له ان قال : « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقى الاثنان » والشرق عنده مؤلف من الامم التى تستعمرها بريطانيا

وهو من حيث الاخلاق يدعو دعوة القرن التاسع عشر . فهو يطلب من المرأة ان تلزم بيتها ومن الرجل ان يعتمد على نفسه ويجترىء ويقتحم . وهو لهذين الغرضين يكره الاشتراكية ويناصبها العداء . وانت تقرأه فتشعر ان صموئيل صميلز صاحب الكتب العديدة التى الفت فى هذا المعنى قد انقلب شاعرا يعظ الناس ويشرح لهم قيمة الاخلاق التي يمتاز بها الرجل الناجح فى جمع المال . وهو قصير النظر لا يستطيع ان يبصر حقائق النظام الاجتماعى ولا يتعظ بوجود نحو ثلاثة ملايين عامل عاطلين فى بلاده سبب عطلهم هو « نجاح » الماليين فى جمع المال . وكذلك هزيمة بلاده أمام اليابان فى التجارة لم تفتح عينيه . وكذلك نهضة الهند لم تنبه ذهنه الغافل

أما بعد ذلك فقل فيه ما شئت من براعة فى نظم القصائد وتأليف القصص ويشق على الناقد ان يسلكه فى زمرة خاصة من الرجعيين او المجددين . فليس شك مثلا فى أنه أبعد الناس عن المنحطين وهو أيضا أبعدهم عن المجددين . ثم ان رجعيته لا تمت بأى نسب إلى رجعية موريس او روسكين أو تشسترتون أو بيلوك من حيث كراهة الآلات والعصر الصناعى الحاضر . وإنما هى رجعية الاستعماري الذى يستغل الآلات فى جمع الثروة ولكنه يأبى ان يؤمن بالانسانية وقد يكون مما يوضح غرضنا أن نقول أنه نقيض بيرون فى الاخلاق والخيال الشعرى . وهو لو عاش قبل مائة سنة أى سنة ١٨٣٠ أو ١٨٤٠ لوجد الوسط المحيط به اليق به واكثر مشاكلة لادبه . ما الآن فلسنا نظن انسانا مثقفا يتطعم افكاره ويسيغ نزعاته . وهو لذلك بطل من أبطال المدارس الانجليزية يقرأه التلاميذ والطلبة ويتغنون بمجد الامبراطورية بانشاد قصائده . ولكن الانجليزى المهذب يجد كثيرا فيه مما يخجله أما غير الانجليزى فيجد كثيرا فيه مما يحنقه ويؤسفه على ان مثل هذا الرجعى يوجد فى القرن العشرين

الاقتصاد فى الادب الجديد

أخذت المسائل الاقتصادية تغمر كل شيء منذ أوائل هذا القرن فتدخل فى الدين والسياسة والادب . فصرنا نسمع عن « الاشتراكية المسيحية » ونقرأ لكهنة الدين المسيحى أقوالا توهمنا أن السيد المسيح قد سبق كارل ماركس وانه دعا إلى دعوته . بل ظهرت فى أوربا أحزاب تمزج بين المسيحية والاشتراكية وترشح أعضاءها لكى ينفذوا المبادىء الاقتصادية التى يدعو اليها الانجيل

وكذلك السياسة أخذت منذ أكثر من خمسين سنة تتجه نحو الاقتصاد . فمجالس الوزراء الآن لاتشتغل فى معظم أوقاتها إلا بالصناعة والزراعة والتجارة وزيادة الاجور وضرائب الجمارك ونحو ذلك . بل لقد شعر المستر تشرشل أحد وزراء بريطانيا السابقين بضغط المسائل الاقتصادية للبرلمان فاقترح تأليف برلمان آخر يقتصر عمله على النظر والفصل فى المسائل الاقتصادية . وهذه السنوات السود التى نعيش فيها تدلنا على ان السياسة إذا لم تكن اقتصاداً فهى ليست شيئاً يذكر

وليس غريباً اذن أن يلتفت المجددون فى الادب الانجليزى الى الاقتصاد . فقد وجدوا ان للعوامل الاقتصادية آثاراً واضحة فى عمران الامة وأخلاقها . ولذلك اتجهوا الى درس الاحوال الاقتصادية اتجاهاً قوياً فألفوا القصص والدرامات لكى يقفوا الجمهور على المساوىء الاقتصادية التى تجر فى عقبها مساوىء اجتماعية

وأبرز الادباء الانجليز الذين جعلوا من الادب وسيلة لدرس المسائل الاقتصادية هم برنارد شو وولز . وهما أيضاً على رأس المجددين . ومن هنا نعرف أن كثيراً من التجديد الادبى فى انجلترا انما هو تجديد اقتصادى

ولا تكاد تخلو قصة من قصص ولز من عبرة اجتماعية يستخرجها القارىء من الاحوال الاقتصادية . وأى شيء أفعل فى النفس من قصة « تونو بنجاى » التى يصف فيها كيف تجمع الثروة الضخمة بالغش والخداع ثم كيف تضاع فى

مظاهر اجتماعية سخيفة ؟ فهنا نرى رجلا يؤلف عقاراً ويعلن عنه انه يشفى طائفة من الامراض ويؤسس الجرائد والمجلات والغرض الظاهر منها خدمة صحفية والغرض الباطن هو الاعلان عن هذا العقار . وليس فى هذا العقار أى شيء لايعرفه الناس وليس فيه أية ميزة ولكن الجمهور يقبل على شرائه لان الاعلانات المتكررة تستهويه وتقنعه بفائدته . ولا يزال صاحبه فى هذا النشاط حتى يصبح من أغنياء العالم المعدودين . ويتساءل ولز هنا أى نظام هذا الذى يجيز لمثل هذا الرجل ان يخدع السذج حتى يستولى على نقودهم بمثل هذا الدواء الذى لايفيد أحداً ممن يستعمله من المرضى ؟

ولكن ولز لايقتصر على القصة . فهو قصاص بالمهنة ولكنه اشتراكى بالنزعة وعندما يجد ان القصة لاتسعفه بتحقيق غرضه يعمد الى الموضوع نفسه فيخرجه مدروساً مشروحاً فى كتاب برأسه . فمن ذلك كتابه « عوالم جديدة للقدماء » وهو فى شرح المسائل الاقتصادية . وكتابه « شقاء الاحذية » وهو فى هذا الموضوع أيضاً . وللأحذية مكانة فى نفس ولز لايستطيع ان ينساها حتى الآن وهو يربح فى العام أكثر من عشرين ألف جنيه . فانه نشأ وهو صغير فى مسكن وضيع فى بدروم أحد البيوت الكبيرة فكان يرى — لأول مايرى — من السابلة فى الشارع أحذيتهم

وفى هذا العام صدر له كتاب ضخم لايقل عن ٨٥٠ صفحة كبيرة هو أعظم شهادة على الرغبة الحارة التى تحدو هذا الاديب الى الاصلاح الاقتصادى وهذا الكتاب هو « العمل والثروة والسعادة » وهو يعالج الازمة المالية الحاضرة فى ذكاء واحاطة جديرين بالاعجاب من الاخصائي فضلا عن الاديب . والكتاب أشبه الاشياء بالموسوعة تشرح فيها كيف يعمل الناس فى الصناعة والزراعة وكيف يلهون فى فراغهم وكيف يتنقل الناس فى أسفارهم وما هى مهمة المرأة فى هذه الدنيا وما ينتظر منها وكيف تتألف الحكومات وما الى ذلك

وكذلك برنارد شو . فان مؤلفاته ودراماته تكاد جميعها تتجه نحو الاشتراكية . وله كتب عدة فى هذا الموضوع منها « اشتراكية المجالس البلدية »

و« الاشتراكية للأغنياء» ثم كتابه الضخم « دليل المرأة الذكية عن الاشتراكية »

اما دراماته فجميعها تعالج موضوعات اجتماعية لها أساس اقتصادي . وهو يعزو جميع النقائص الاجتماعية كالبغاء والحرب والجرائم والامراض الى عوامل اقتصادية ويبحثها جميعها تقريباً من هذه الناحية . والقارىء لبرنارد شو يشعر فى جميع مايقرأ ان المؤلف يريد ان يبرز له هذه الحقيقة وهي ان فى العالم فقراء يؤذيهم الفقر فى صحتهم وأخلاقهم وأغنياء لايعرفون كيف يتمتعون بغناهم ولاهم مرتاحون الى هذا الغنى لان تكاليفه تكاد أحيانا تزيد على مكافأته

وقد كان الفقر موضوعا للأدباء ، قبل خمسين سنة . فان كتاب « البائسين » الذي ألفه فكتور هوجو هو فى الحقيقة كتاب الفقراء لان البؤس هو الفقر . والقصص التى ألفها تولستوي ودستوفسكي وجوركى تنحو أحياناً كثيرة نحو هذه الغاية . ولكن القصد لم يكن واضحاً عند هوجو أو دستوفسكى أو تولستوي لان الفن يتغلب هنا على القصد الاجتماعى . وقد لانستطيع ان نقول مثل هذا القول عن جوركى لان غايته واضحة . ولكن لايسع القارىء مع ذلك الا أن يحس ان رجل الفن هنا أبرز من رجل الاجتماع

أما الادباء المجددون فى انجلترا فان غايتهم تتضح وقصدهم يسفر . وقد يكون ذلك لانهم دون جوركى فى الفن أو لان الرغبة فى الدعاية المذهبية تتفوق على الحاسة الفنية . ولذلك كثيراً مانجد ولز أو شو ينسيان القصة أو الدرامة ويأخذان فى شرح حالة اجتماعية بلهجة التدريس لابلهجة القصص أو الحوار

ولا يقتصر هذا الالتفات على هذين الاديبين البارزين فان هناك عدداً كبيراً من الادباء الانجليز قد جعلوا الفقر حجر الزاوية عندهم فى القصة أو الدرامة . وقد تجاوزت هذه النزعة كتاب انجلترا إلى الكتاب الامريكيين . فهناك نجد مثلا ابتون سنكلير الذى خص نفسه لمعالجة الدعاية الاشتراكية فى أسلوب سافر جعل جميع الناشرين يقاطعونه حتى صار يضطر إلى ان يطبع مؤلفاته بنفسه

برنارد شو

قلما يتاح لأديب أن ينال من الذكر بين العامة والخاصة مثل ما ناله برنارد شو . فان قراء الصحف الذين لم يعتادوا قراءة كتاب فى الأدب يعرفون اسمه ويحبونه بينما هم يجهلون كبلنج أو روسكين أو وز . وليس هذا بين الجمهور الانجليزي فقط بل بين سائر الجماهير القارئة فى العالم المتمدن

وذلك لأن برنارد شو يمزج فلسفته بفكاهة . فالأولى للخاصة والثانية للعامة . وهو فى فكاهته يسمو على الهريج . فاذا أراد أن يضحكك لم يدهن وجهه بالدقيق ويهرج لك مهرج البله والمجانين . بل هو يتأنق فى أعمال الفكرة وينظر الى ماوراء الظواهر فيزيل عن الوقار هيبته وينضو عن العرف ثيابه ويقف بك حيال الحقائق العارية . ولكن مثل هذا الموقف يؤلم لانه يحرمنا من أوهامنا المحبوبة فهو لذلك يخفف من هذا الألم بالفكاهة

ويختلف برنارد شو من المنحطين اختلاف النقيض للنقيض اذ بينما هم يؤمنون باللذة ويدعون الى الاستمتاع يدعو هو الى النسك والزهد . ولا يعرف من اللذات غير اللذات الذهنية . فهو يتهالك على الصورة الفنية وينغمس فى درسها أو هو يتهالك على الموسيقا ويرضى بتكبد المشاق لاستماع أحد الموسيقيين أو رؤية أحد الراقصين ولكنه يصد صدوداً مستغرباً عن اللذة الجنسية . وقد عشق الممثلة الجميلة الين تري فكان يراها وهى تمثل على المسرح ثم يتجنبها فلا يلتقيان ولا يتواعدان

وقد علل أحد النقاد هذا الزهد الجنسى بتعاليل مختلفة منها زهده فى طعام اللحم وشراب الخمر . ولكن أصح من هذا التعليل أن يقال أن زهده للنساء واللحم والخمر يعود الى منبع واحد فى نفسه هو هذا المزاج الطهرى الذى نجد له أمثلة عدة فى انجلترا وهو ثمرة الدعاية الطهرية التى فشت فى تلك البلاد منذ أيام كرومويل

وقد سبق ان قلنا أن كبلنج يجعل من الفن اداة لخدمة الامبراطورية والاستعمار . وبرنارد شو يشبهه من حيث استعمال الفن اداة ولكنه يخدم بهذه الاداة الاصلاح الاجتماعى . وهو قبل كل شيء يدعو الي الاشتراكية . وهو لايبالى انفاق رقته وماله فى تحقيق الاشتراكية . وقد تبرع بمبلغ ثلاثين ألف جنيه لبناء منازل للعمال

ومن يتأمل مؤلفاته وحياته يجده عاش وما زال يعيش فى ظل داروين وماركس .وليس هذا غريبا فان حياته الذهنية تقع بين سنة ١٨٨٠ وسنة ١٩٣٠ وفى النصف الاول من هذه المدة كان التطور مثار المناقشة وموضوع المجلات والكتب . أما النصف الثانى فموضوعه الكفاح الذى لم ينته بعد بين الاشتراكية وبين الانفرادية

وقد نشأ برنارد شو فى ارلندا من أبوين بروتستانتيين . وكانت أمه تجيد العزف على البيان وكان أبوه سكيراً مستهتراً ورحلت به أمه الى انجلترا وكان برنارد لايخجل وهو شاب من أن يعيش بما تتكسبه هي من الموسيقا . وقد استطاع بفضل هذه الأم أن يتوفر على القراءة

وكانت الاشتراكية حوالى سنة ١٨٨٠ بدعة تجذب اليها الشبان لكثرة نظرياتها وشكوكها واختلاط المذاهب بين القائمين بها . فجذبته اليها وكان هو أحد المؤسسين للجمعية الفابية التى أخذت على نفسها تغذية الجمهور الانجليزى بالآداب الاشتراكية

والقاريء لبرنارد شو لايسعه إلا أن يعترف بأنه اكتسب شيئاً كثيراً من الأجانب والانجليز . فهو متدين غير سنى يؤمن فيما يتعلق بما وراء المحسوس ببرغسون وشوبنهور . وقد أخذ عن إبسن درامة « الموضوع » أو المسألة . كما أخذ شيئاً كثيراً عن نيتشه فى الاخلاق . وهو يؤمن بالتطور ولكن ليس عن طريق داروين بل عن طريق لامارك . أما اشتراكيته فكانت وما تزال اشتراكية ماركس

أما الكتاب الانجليز الذين تأثر بهم فكثيرون . منهم روسكين وصموئيل بطلر ودكنز وداروين

وهو فى أسلوبه وغايته أقرب فى الشبه إلى العلماء مثل برتراند روسل أو هافلوك أليس منه الى الادباء مثل رديارد كبلنج أو أرنولد بنت . فان عبارته تمتاز بالدقة وتخلو خلواً تاما من التزويق أو الرشاقة وأكاد أتوهم من مؤلفات برنارد شو انه رائد لسلالة جديدة من الأدباء هى تلك التى تؤمن بالعلم وتقلع عن الأدب كأنه من الوسائل العتيقة التى مضى زمانها

والآن ما هي المهمة التى أداها برنارد شو لبنى عصره ؟

١ — انه جعل الدرامة اجتماعية فوصل بين المسرح والحياة وجعل منه مدرسة للكبار يرون فيها معضلاتهم الاجتماعية

٢ — انه أزال من المسرح تلك المكانة التى كانت للغرام والحب والخيال الفاسد كما انه قضى أو كاد يقضى على أساليب التهريج المسرحى من إيجاد وقائع دموية ومصادمات عنيفة تستثير الجمهور ولا تفيده

٣ — انه جعل الفكاهة وسيلة إلى درس الفلسفة

٤ — انه أفشى فى العالم الانجليزى روحا انسانية تكره الاستعمار وتشريح الحيوان الحى وضرب التلاميذ وقتل الحيوان للطعام

٥ — انه جعل التطور الداروينى مادة من مواد البرنامج الاجتماعى لاصلاح البشر

٦ — انه أثبت فى أذهان الطبقة القارئة المستنيرة ان الاخلاق عادات وعرف لا أكثر ولا أقل

* * *

هذه هى خلاصة مقتضبة . ولكن على القارىء المصرى أن يذكر أن برنارد شو رجل غربى يؤمن بأوربا ولا يؤمن أقل الايمان بأسيا . بل هو إلى حد ما يؤمن بالسلالات الاوربية وانها زبدة البشر ولباب الانسانية

وبكلمة أخرى نقول انه أبعد الناس عن غاندى

الدراما الاجتماعية

كان برنارد شو أول من جهد لتعميم الدرامة الاجتماعية فى المسرح الانجليزى . فقد دعا أولا إلى دخول الدرامة الابسنية وكان بوقا عالياً لهذا المؤلف النروجي ابسن الذى اكتسحت دراماته الخاصة فى أوربا . ثم شرع هو منذ سنة ١٨٩٠ يؤلف للمسرح ويعالج المسائل الاجتماعية فله درامة عن البغاء وعلاقته بالاحوال الاقتصادية وأخرى عن الايمان بالمسيحية وأخرى عن الحرب . الخ

وهو فى بعض هذه الدرامات يهدم ولا يبنى . وقد يعتذر عنه هنا بأن الهدم نصف البناء وانه لايمكن بناء إلا بعد ان تزول بقايا القديم وينظف المكان الجديد

وقد سبق ان قلنا عن برنارد شو انه يمثل الانتقاض على القرن التاسع عشر والثورة على عقائده ومؤسساته . ففى هذا القرن نرى الايمان بالديمقراطية التى هى النتيجة المحتومة للثورة الفرنسية . ونرى أن الرواج الصناعى قد بعث فى النفوس آمالا بالنجاح فزاد الايمان بالفردية والاستقلال الذاتى . ولكن درس الاحوال والتقلبات الاقتصادية وقف المفكرين على علل كثيرة فى النظام الاقتصادى الحاضر

وعندما نقرأ برنارد شو نجده يمثل روح العصر فى هذا التزعزع الذى يشمل كل شىء تقريباً . فقد تزعزع إيماننا بأشياء كثيرة ووهنت عقائدنا أو انمحت ولكنا لم نضع مكانها إيماناً جديداً . وهذا الجهد الذى نراه عند كثير من العلماء مثل برغسون فى القول بالبصيرة بدلا من العقل أو عند أوليفر لودج فى القول بالارواح التى ترد الينا من عالم الاموات أو عند جيمس جانز فى القول بأنه يشرف على الكون عقل رياضى عظيم — كل هذه المحاولات لايجاد ايمان جديد انما هي برهان على تزعزع العقائد القديمة ورغبة النفس الجامحة إلى الاستناد الى شىء بدلا من لاشىء

فاذا نحن درسنا برنارد شو أو من جاءوا بعده من الادباء الاجتماعيين وجدنا شيئاً كثيراً جداً من الهدم مع القليل جداً من البناء . وهم من هذه الناحية يشبهون علماء الاقتصاد فى الازمة الحاضرة . فان هؤلاء يجمعون الآن على فساد عظيم فى النظم الاقتصادية الراهنة ولكنهم عندما يطلب منهم ايجاد مقترحات جديدة للعلاج يعجزون عن اقتراح أى شىء يمكن الاخذ به والاعتماد عليه غير القليل التافه

ولست مع ذلك أتعامى عن أشياء ومقترحات كثيرة اقترحها برنارد شو على سبيل البناء والعلاج . ولكنها يبدو عليها عند التأمل أنها فى مكان الاعتذار عن البناء لا البناء نفسه . فهو عندما يأخذ فى نقد المسيحية ويسير شوطاً بعيداً فى الهدم ينتهى فى ضعف الى التعلق بان الالوهية كائنة فينا . وعندما يسقط فى يده عن قيمة المنافسة بين الافراد فى عصر صناعى وما تجلبه من ضرر بالناس يلتجىء الى الاشتراكية بتحفظات عدة

وقد يشعر القارىء انه ايمانه كبير وانه يعتقد اعتقاداً راسخاً بالعلم وفائدته . ولكنه لم يمكنه مع ذلك ان يصور لنا هيئة اجتماعية تعيش على مايراه لها إلا بعد أن يتخلص من العقل ويطير بالخيال الى زمن مجهول فى المستقبل يبعد عن زماننا بنحو ٣٠٠٠٠ سنة حيث تنقطع كل علاقة بين الحاضر والمستقبل

ومما يجب ان يلاحظ هنا ان جميع الادباء الذين يمثلون الانحلال ويعملون للهدم يتفاءلون بالمستقبل ويؤمنون أعظم الايمان بالعلم . وهذا مانرى من ولز وشو مثلا . بينما العلماء أنفسهم أمثال برتراند روسل يتشاءمون من سلطان العلم ويتنبأون أسوأ النبوءات عن الهيئة الاجتماعية التى تعيش فى ظل العلم ويقولون ان الفئة التى تحتكر الثقافة العلمية ستأخذ فى الاستئثار بالسلطان وتتسلط على العامة

ونظن ان القارىء سينتهى الى الاعتقاد باننا نستصغر شأن شو بهذا الذى

ذكرنا عنه . ولكن الحقيقة اننا نكبره ونعتقد انه أدى أعظم خدمة للأدب الانجليزى عامة وللمسرح الانجليزى خاصة بتوجيهه هذه الوجهة . ثم هو فى ظروفه التاريخية لم يكن له مفر من ان يقف معظم مجهوده الادبى على الهدم . فقد نشأ فى وسط اجتماعى ورث تقاليد عتيقة فى الاسرة والاقتصاد والحكومة وعلاقات الدول ورأى ظروفا اقتصادية جديدة فى الصناعة تفعل فعلها فى الانحلال فأخذ فى شرح النقائص حتى تطابق الحال الاجتماعية الحال الاقتصادية

وحسبنا من شو انه فتح الاعين الى الاصلاح بأن وضع الاصبع على أمكنة الداء

وبرنارد شو عندما يعالج المسائل الاجتماعية ، نرى انه يحدوه الى هذه المعالجة نزعتان . احداهما تلك النزعة العلمية التى تجعله يؤلف كتابا فى الاقتصاديات لاتقل ضخامته عن ٥٠٠ صفحة يشرح فيها قيمة النقد ومعنى البدل النقدى والعرض والطلب وأجر العامل وأجرة العقار ونحو ذلك ، مما هو أبعد الاشياء عن أديب يحترف القصص . والاخرى تلك النزعة الانسانية التى تعيد الينا ذكرى فولتير وروسو . وأحيانا تصطدم فيه النزعتان فانه يحارب العلماء والاطباء بماله وقلمه ووقته لانهم يجربون تجاربهم حيانا فى الحيوان الحى . وهم بالطبع يقصدون من هذه التجارب الى المنفعة الانسانية ولكن انسانية برنارد شو تمنعه من التفكير فى هذه المنفعة اذا كان لابد من إيلام الحيوان لاجل تحقيقها . وهو يكره القسوة بألوانها المختلفة ودرجاتها المتفاوتة . فهو من ناحية يلعن الاطباء والعلماء لانهم يؤلمون الحيوان بما يسمونه التجربة العلمية ويتهمهم بأنهم انما يمارسون لذة خفية « سادية » بهذا الايلام لاتختلف من لذة الرجل الذى يصاب بالشذوذ الجنسى حين يهجر المرأة إلى غيرها ، ومن ناحية أخرى يخاطب الزوج الانجليزى ويبكته فى لهجة لاذعة من التقريع لانه يلح على اقتضاء حقوقه الزوجية بالنوم فى سرير واحد مع زوجته

وبين هذين الطرفين نجده فى معالجته للمسائل الاجتماعية ينزع نزعة كثيراً ماتتفق وأغراضه الاشتراكية فهو يكره الاستعمار ويذكر حادثة دنشواى بالتفصيل المؤلم . وهو يطلب الرفق بالاولاد ويصرح بأن هناك آباء يسيئون تربية أبنائهم ويجب ان ينفصلوا منهم . وقد آمن بنظرية التطور بل دعا الى الاستنارة بها فى الهيئة الاجتماعية حتى ينشأ من الانسان « سبرمان » تكون نسبته الينا كنسبتنا نحن الى القردة . ولكنه عندما اصطدم بمبدأ « تنازع البقاء » والطبيعة الحمراء بين المخلب والناب أبت انسانيته ان يصدق ان فى هذا الكون مثل هذه القسوة فرفض الايمان بهذا المبدأ وأخذ يحتال على تفسير آخر للتطور كأنه يريد ان تكون الطبيعة انسانية أيضاً أو كأنه لايفهم انه هو نفسه انسان لانه أرقى من الطبيعة

فلسفة برنارد شو

كان الفلاسفة فى الازمنة القديمة وبعض الحديثة لا يعدون أنفسهم جديرين بالفلسفة إلا إذا تكلموا عن الاصول والنهايات وما يتجاوز حدود التفكير المنطق . ومن هنا لم يكن الفرق عظيما بين الصوفى والفيلسوف . ومن هنا أيضاً كانت الفلسفات متشابهة فى الغاية والابهام أو الاستعصاء التام على الفهم . فلم يكن يفهمها إلا المعتقد الذى يرى ان العقيدة خيراً من الرأى والبصيرة أنفذ من الفهم . وكان الفيلسوف لذلك يبتعد عن الناس ويعيش فى عزلة ونسك يجتر ذهنه ويكتب فى القرن التاسع عشر ما كان يكتبه أفلاطون قبل ٢٣٠٠ سنة عن الفكرة والموضوع . أو الشىء فى عقلنا والشىء فى ذاته . الخ

وقلما ينجو مفكر من هذه الشواغل الذهنية . والواقع انه يجب الا ينجو منها وأن تكون له منها رياضة بشرط الا ينغمس فيها لان الاختبارات الماضية تدل على ان الانغماس لا يأتي بطائل واننا ننتهى بعد الجلد ونفاد الصبر والذهن الى أن نقول كما قال هربرت سبنسر ان كل هذه الاشياء هى « مالا تمكن معرفته »

وفيلسوف هذه الايام اذن ليس هو ذلك الناسك الذي ينأى عن الناس ويتكلم من فوق رءوسهم بما لا يفهمون . وانما هو الذي يختلط بهم ويدرس مسائلهم ويحاول المحاولات المختلفة لاصلاح أحوالهم بل اصلاح أجسامهم وعقولهم . وأنت اذا سألت عن المواد الخامة التى يغتذى منها الاديب أو الفيلسوف فى عصرنا ألفيتها أبعد ماتكون عما كان يفكر فيه الاديب أو الفيلسوف القديم . فهو الآن يجب عليه أن يدرس الطبيعة البشرية من المقامرة فى البورصة ومضمار الجياد وعليه أن يجهد ذهنه فى درس العوامل الاقتصادية التى ترفع وتحط الأمم أو الأفراد . فمسائل النقد والأجر والايجار والامتلاك والفاقة والغنى يجب أن تشغل باله لان جزءاً كبيراً من سعادة البشر يرجع اليها . ثم هو لا يمكنه الآن أن يستغنى عن العلوم لانه لم يعد فى مقدور

انسان أن يتكلم عن الاخلاق والفضيلة والرذيلة ما لم يعتمد فى ذلك على المكتشفات العلمية الحديثة

وبرنارد شو يعد من هذه الاعتبارات فيلسوفا حديثاً يلح فى درس الهيئة الاجتماعية الحاضرة قبل درس التاريخ ويؤلف الكتب فى واجبات المجالس البلدية كما يؤلفها عن مستقبل الانسان بعد ثلاثين ألف سنة ويقرأ الكتب الطبية ويجاهر للناس بأن الطب مجموعة خرافات صارت حرفة يحترفها الاطباء للعيش . ثم يعود على الأدب فينكر على أدباء القصة والدرامة اهتمامهم بالحب والغرام ويصرح بأن ذلك الرجل الذى يعدد مآثره الغرامية انما هو كذلك الآخر الذى يعدد مآثره فى التهام ألوان الطعام سواء

وتمتاز الدرامة كما يؤلفها برنارد شو بأنها خالية من الغرام أو هو فيها فى المحل الثاني . بل هو أحياناً كثيرة يخترع الموقف للتهكم بالعواطف الغرامية . ودراماته هي مصطرع الافكار يتألق منها شرر الذكاء فى حوار بديع فلا يستطيع البليد الا أن يفكر كلما قرأ له درامة أو شاهدها ممثلة على المسرح . وله بدعة جميلة هي انه يكتب لكل درامة مقدمة تبلغ ١٥٠ صفحة يشرح فيها الموضوع الذى تعالجه الدرامة . وهو هنا يشرح فلسفته ويسهب فى بيان ما اضطر الي اختصاره فى حوار الدرامة . بل هو أحياناً يبالغ فى هذه البدعة فلا يقنع بالمقدمة بل يؤلف كتاباً آخر ينسبه الي أحد أبطال الدرامة ويلحقه بالدرامة نفسها . ففى « الانسان والسبرمان » نرى على المسرح رجلا يقول انه ألف كتاباً ثم يقدمه لأحد أصدقائه . ولا ندرى نحن المشاهدين من أمر هذا الكتاب شيئاً ولكن برنارد شو يكتبه ويلحقه بالدرامة المطبوعة . وهو كتاب جميل يبحث آداب الثورة والثائرين لأبناء القرن العشرين

وليس لبرنارد شو « نظام » فلسفى كما نرى مثلا لشوبنهور أو برجسون وانما له أفكار فلسفية يمكننا أن نستخرجها من دراماته أو بالاحرى من مقدمات دراماته

ولو شئنا لعددنا له الكثير من هذه الافكار . ولكن نقنع ببعضها أو بالاهم دون المهم

فهو في الاخلاق يطلب حرية الفرد التامة . فلكل انسان أن يفعل ما يشاء من فضيلة أو رذيلة . فيرى أن ليس للهيئة الاجتماعية مثلا أن تكف الناس عن الخمر ويبنى رأيه هذا أن مصلحتها الحقيقية تقتضى أن تباح الخمور لجميع الناس حتى تصطرع الارادات فيبقى الرجل الصليب الذى لاتغريه الخمر بالانغماس ويموت اللين الخريع الذى ينغمس فى الشراب . وذلك أن من شأن الرذائل ان تقتل المتهالكين عليها وان من مصلحة الامة أن ينقرض هؤلاء الضعفاء الذين لايملكون ارادتهم حتى لايبقى فيها غير الاقوياء . أو بعبارة أخرى يريد برنارد شو ان تكون الفضائل سجايا موروثة تجرى فى عروقنا وتتمشى بنا كأنها بعض طبائعنا نلزمها عفواً وطبعاً وليس تكلفا وتعليما ولن يكون ذلك الا بأن تنقرض منا عناصر الشر بانقراض أصحابها . وانقراض أصحابها لايكون الا بأن يستسلموا لها وينغمسوا فيها . واذا كانت الرذيلة لاتقتل أصحابها فهى اذن ليست رذيلة وليس ما يدعونا الى أن نكف الناس عنها . فالنهم والمنغمس والمدمن والقذر والمستهتر كل هؤلاء يؤذون أنفسهم بما يمارسونه . فمن مصلحة الأمة أن تتركهم حتى يبيدوا منها وليس من مصلحتها أن تقيم الحواجز لكى تكفهم عنها لان قصارى ماتفعله عندئذ انها تقيم قفصا من الواجبات الاخلاقية . ولكنها مع ذلك لم تغير طبائعهم . وهو يضرب المثل بفرنسا التى تستباح فيها الخمور يشربها الصغار والكبار . فان الفرنسى أقل الأمم سكراً وادمانا لان الذين أدمنوا قد هلكوا وباد نسلهم فلم يبق سوى المعتدلين

ولكن الذين رأوا تفشى المخدرات فى مصر عقب الحرب لايمكنهم أن يؤمنوا بهذه الاباحية . فقد رأينا نحن نصف مليون مصرى تفترسهم المخدرات وليس فينا من يستطيع ان يقول الآن انه كان يجب علينا ان نتركهم حتى تقتلهم هذه المخدرات لانهم انما وقعوا فيها لضعف ارادتهم وان هذا الضعف جدير بأن تطهر منه الامة حتى لايبقى فيها غير الاقوياء المستعصمين الذين يستطيعون ان يعيشوا ويتصونوا مهما أحاطت بهم الغوايات

ولمذهب داروين الأثر الا كبر فى نزعات برنارد شو التجديدية . وهو هنا فى موضوع الأخلاق إنما يجيز هـذه الأباحية لانه يرجو منها تطوراً يصيب القلوب والغرائز فتستحيل الاخـلاق طباعا موروثة لايحتاج الناس الى تعلمها وتكلفها وسن القوانين وإقامة الحواجز للمنع من مخالفتها

وهذا « التطور » يشغف به برنارد شو شغفاً عظيما حتى لقد جعله موضوعا لاثنتين من أقوى دراماته . وهو فى واحدة منها يقترح انشاء وزارة للتطور يكون رئيسها عضواً فى مجلس الوزراء والقصد من هذه الوزارة تدبير الطرق وتهيئة الوسائل لاستنتاج طراز جديد من الناس يكون أقوى جسما وأذكى عقلا وأصح غرائز منا . وهـذا الطراز الجديد هو « السبرمان » أى ما فوق الانسان . فانه يقول انه مادمنا فى عصر ديمقراطى الحـكم فيه للأمم فانه يجب ان نجعل الناس يتطورون حتى إذا مرت القرون ظهرت سلالات جديدة من الانسان تمتاز من السلالات القديمة بميزات إنسانية جديدة . وهو هنا يشرح للقارىء جمود الانسان منذ فجر المدنية الى الآن . فان هذا الرقى الذى نفخر به إنما هو فى الوسط الذى يحيط بنا وليس فى أنفسنا . فنحن أبناء العصر الحاضر وآباؤنا قبل عشرة آلاف سنة سواء من حيث صحة الجسم وذكاء العقل لم نتقدم عليهم فى شىء . وهـذا التقدم الموهوم هو فى الوسط فقط وهو هنا يستشهد على اننا والمتوحشين سواء فى الغرائز بآلاف الأمثلة منها مثـلا أن المتوحشين يحملون رؤوس قتلاهم وكذلك فعل كتشنر مع جثة المهدى فى السودان

وهو يرى انه لابد لاستنتاج هذا الطراز الجديد من الانسان من الانتخاب الذى يتجاوز حدود الزواج وهو يفرض وجود هيئة من العلماء تكلفهم وزارة التطور بتعيين الأشخاص الذين ترى فى تزاوجهم فائدة للأمة من نسلهم المنتظر . وهو هنا أباحى لاغش فيه . ولو أردنا الشرح والاسهاب لتورطنا فيما لايطيقه ذوق القارىء العربى ولـكنا نقول انه ينظر إلى القوانين والشرائع من حيث انها عادات وعرف وانه يجب أن تغير كلما وجدنا فائدة فى التغيير . وهو يضرب المثل هنا بالزواج . فان هذه الـكلمة تحاط بهالة من الاحترام والقدسية حتى ليظن

الانسان انها تعنى شيئاً واحداً عند جميع الناس . مع ان الواقع انها تعنى عادات تختلف بل تتناقض . فهناك المرأة التى تتزوج بضعة رجال فى تبت . وهناك الرجل الذي يتزوج بضع نساء . وهناك الزواج الذى لايجاز فيه سوى رجل وامرأة لا أكثر . وينتقل من هذا البيان إلى استدراج القارىء إلى أن القول باستنتاج طراز جديد من الناس بلا زواج شرعى وعشرة دائمة بين الزوجين ليس قولا غريباً وإنما هو ابتكار عادة جديدة يقررها وزير التطور ، أوهو زواج جديد

ولا يجوز لنا أن نتناول فلسفة برنارد شو دون أن نشير إلي الاشتراكية . فانه يعلق هـذا المذهب الاقتصادى على مذهبه البيولوجي السابق فى استنتاج السبرمان . وما دامت المرأة حرة من هذه الناحية الاشتراكية تعمل وتكسب فهى تستطيع أن تختار زوجها بهداية غرائزها وهو يرى أن هداية الغرائز أدعى الى ترقية السلالات الانسانية من أى اعتبار آخر من الاعتبارات الحاضرة فى الزواج كأن تنشد المرأة فى الزواج كفيلا يكفل لها العيش بدلا من أن تنشد فيه حبيباً ومحباً . ومن يقرأ كتابه الاخير عن الاشتراكية ثم عبثه بغيرها من المذاهب الاقتصادية يشعر انه قد مال الي الغلو ونأى عن الاعتدال

وهو من حيث الدين — أو بكلام أصح — من حيث المعانى الدينية يؤمن بالتصوف البرغسونى وان البصيرة هي التى تهدى الذهن وان التطور يحمل فى نزعته عناصر الرقى . وقد ألف ثلاث درامات عن الدين وهي وإن لم تدل القارىء على انه صريح الايمان بالله فانها تدل على الاقل على انه مشغول البال بهـذا الموضوع . ولـكن لايمكن مع ذلك أن يقال انه ملحد فانه يرى أن الوظيفة هى أصـل العضو وأن العقل هو الاصـل للجسم وأن الفكرة هى الأصل للمادة وأن وراء الـكون الظاهر عقلا مختفياً . وقد حمل علي داروين لانه حين عالج موضوع التطور نظر اليه نظرة مادية فأزال منه القصد والغاية وجعل ظهور الانواع الجديدة وقفاً على بقاء الاصح وهذا لايعنى عند داروين أكثر من الاعتماد على المصادفات العمياء وأن التطور يجرى جزافا بلا قصد

من داروين الى برغسون

من الاهمال العظيم أن نعنى بحركة التجديد فى الادب دون أن نلتفت إلى عناية الادباء بالدين

صحيح أن الاديب الاوربى الآن لايبالى كثيرا الموضوعات الدينية كما كان يباليها فولتير مثلا قبل ١٧٠ سنة ، ولكن ذلك يرجع إلى ان الاضطهاد الدينى كان قويا أيام فولتير . فلم يكن اهتمام هذا الاديب العظيم به إلا على سبيل الجهاد للحرية فقط

أما الان فاننا بفضل فولتير وغيره من الذين حاربوا الظلم والظلام نعيش فى جو من التسامح الدينى لا يبعث الاديب على الجهاد للحرية . ثم ان محور المدنية الحاضرة يعتمد فى حركته على الاقتصاديات ولذلك انتقلت هموم الادباء أو معظم همومهم من الدين إلى معالجة الاقتصاديات

ولكن التجديد الادبي كما هو مشاهد الآن ومنذ اربعين سنة فى انجلترا يرافقه تجديد دينى ترى علاماته فى كثرة المؤلفات التى يضعها كبار الادباء وفى اهتمام الجمهور المتعلم بالفلسفة الشرقية عامة وفي الدعوة إلى محاربة المادية بألوان من العقائد « الدينية » كالروحية والحيوية والبشرية

وأول من ألقى الحجر وعكر المياه الصافية هو داروين . ولم يكن داروين أول من تكلم عن التطور فقد سبقه لامارك وجوتيه بل سبقه جده لابيه . وإنما امتاز داروين بوفرة الشواهد التى اعتمد عليها فى التدليل على تسلسل الاحياء الحاضر من أحياء قديمة بائدة . ثم أن الكنيسة وقفت موقف العداء فصار المذهب الداروينى حربا بين الكنسيين والتطوريين . وهذه الحرب هى التى أكسبت هذا المذهب قوة وانتشاراً

ولكن منذ أيام داروين ظهر لمذهبه عدو جديد غير الكنيسة . وقد وجد

أنصار داروين أن الانتصار على الكنيسة ليس شيئا عظيما ولكن الانتصار على هذا العدو الجديد لم يكن سهلا ولا يعد حتى الآن كذلك

وهذا العدو الجديد يؤمن بالتطور والتسلسل ولكنه لايؤمن بداروين . وذلك لان داروين اعتمد على « تنازع البقاء » و « الانتخاب الطبيعى » كأنهما العاملان الوحيدان تقريبا فى تطور الاحياء . واذا نحن تأملنا هذين العاملين الفينا معناهما ينحصر فى المصادفة . فكأن الطبيعة عمياء تخبط فى التطور وكأنه ليس وراءها ارادة أو عقل : وهذه هي المادية الصريحة

ولذلك نجد منذ أيام داروين حركة قوية يزعمها بطل الذى كان يؤمن بالتطور ولكنه كان يقول بأن الاساس أو المحرك لهذا التطوو هو الارادة أو العقل . وأن الانسان لم يبلغ انسانيته إلا لانه أراد أن يكون انسانا . فهذه الانسانية لم نبلغها مصادفة بتنازع البقاء والانتخاب الطبيعى ولم يكن ظهورنا على الارض خبط عشواء ، كما يعتقد داروين . وإنما كان لاننا أردنا وقصدنا الى الغاية التى انتهينا اليها . ولا عبرة بالقول بأن أسلافنا من الاحياء الوضيعة لم تكن تعرف هذه الغاية لان عرفانها بها لا يقتضى الشعور أو الوعى . وهذا لا يمنع ان إرادة التطور الى الانسانية كانت مستقرة فى نفسها

وهذا النظر الصوفى للعلم أو الايمان بان وراء الظواهر قوة خفية تعمل للرقي لايمكن حذفه بالسهولة التى يبعثها البحث السطحى . فان التعمق فى هذا الموضوع إن لم يؤد الى الايمان فانه سيؤدى على الاقل الى الشك فى المادية

وكلمة « المادية » تؤدى الآن معنيين فى أذهان المفكرين . أحدهما ذلك المعنى الفلسفى الذى نعنى به الايمان بما يخالف الروحية والاقتصار على المحسوسات أو المعقولات . والآخر ذلك المعنى الاقتصادى الذى نقصده حين نفسر التاريخ تفسيراً ماديا فلا نرى وراء الحادثة أو الشخص سوى الظروف المحيطة التى تؤثر فيهما . والواقع ان هذا « النظر المادى للتاريخ » الذى أذاعه ماركس يشبه تمام الشبه ذلك النظر المادى للحياة الذى اعتمد عليه داروين فى تاريخ

الاحياء أى التطور . فكل من داروين وماركس يكبر من شأن الوسط ويصغر من شأن الحى

والآن تسمع فى بعض الاوساط أن مذهب داروين قد مات . وقائلو هذا القول لايعنون أنهم لا يؤمنون بالتطور وإنما يعنون ان تنازع البقاء وبقاء الاصلح ليسا هما المحركان للتطور . وان فى الاحياء « حيوية » تسمو الى قصد وتتوخى غاية

وهذه « الحيوية » هي الآن مذهب يعارض المادية فى الفلسفة . وقد عادت الكنيسة الانجليزية بعد مشاكسة طويلة تؤمن بالتطور وتقول به لانها رأت فى هذه الحيوية شيئا قريبا من الروحية واعترافا بأن فى الكون عقلا يدبر . وكان بطر أول من بذر هذه البذرة . ثم جاء بعده برناردشو فقال أيضا بقوة الحياة . وأخيرا جاء برغسون العالم الفرنسى فشرح وأسهب واستطاع أن يشق شقا بين الماديين فيكتسب منهم البعض ويلقى الشك فى اذهان البعض الآخر . وهو إلى الان محور المعركة ورجاء الروحيين . وهو يرى ان الحياة نفسها دائبة لاتفتر فى التطور وهى ترمي الى قصد وان لم يكن معينا . وقد يأتى يوم بعيد نعرف فيه غايتها ونقف منها على أسرارها . وذلك ان الحياة قدأخذت طريقين فى تاريخ الاحياء فى الماضى :

طريق العقل كما نرى فى الانسان

وطريق الغريزة كما نرى فى الحشرات

وكل من العقل والغريزة قد نشأ لمصلحة الحيوان للبحث عن الطعام وطلب الاانى والهجوم والدفاع ونحو ذلك . ولكن نحن نرى الآن أننا قد صار لنا من هذا العقل الوضيع ذهن فلسفى يستطيع ان يتجرد من مطالب الطعام واللقاح الى التفكير فى الكون منشأ وغاية . واذن — يتساءل برغسون — لماذا لايكون فى مقدور الانسان أن يستخرج من غرائزه بصيرة يستطيع أن يكشف بها

الحقائق كشفا لدنيا بلا عناء ولا تفكير كما تهتدى الحشرة الى فريستها أو انثاها بلا تفكير أو تدبر

والغرائز كامنة فى الانسان قد تغلب عليها العقل ويمكن احياؤها فى أى وقت واستنباط البصيرة الفلسفية منها . وهذا هو النظر الصوفى على اقصاه وأبلغه . وهو أيضا نظر طائفة من الادباء الذين يحاولون تجديد الدين . وفى مقدمة هؤلاء برناردشو . فان هذا الاديب يخاف العلم خوفا حقيقيا مع أنه يرى فيه الرجاء لتحقيق السعادة بتوفير الخيرات للناس . فهو لذلك ينذر الناس بأن مصيرهم الى الفناء والدمار إذا لم يعتمدوا فى حياتهم على الدين . ولذلك حمل حملته المنكرة على داروين لانه كما يقول بطلر قد ألغى العقل من الكون ووضع تنازع البقاء وبقاء الاصلح مكانه . فكأنه بذلك قد جعل القتال والحروب والتناحر والمزاحمة الى الموت سننا أو نواميس قد شرعها لنا الطبيعة فلا بأس من أن نسير فيها . وهذا هو الدمار

والخوف من تقدم العلوم والحذر منه إذا لم يرافقه دين يتضح فى جميع ما كتبه شو وولز . فقد كتب هذا الثاني جملة مؤلفات عن الله والدين ولكنه الحد أخيرا وسكن الي الالحاد على الرغم منه . وأصبح يشبه القائلين بالبشرية أى الايمان بالانسانية فقط والعمل لرقيها . ولكنه مع الحاده يدعو إلى الدين البشرى لانه يخاف مادية العلم وان يؤدى تقدمه إلى زيادة التنازع والتناحر فيقضى هذا التقدم على الحضارة

وهنا يجوز لنا أن نتساءل : هل الباعث الحقيقى الى هذا الاهتمام بالتدين عند بطلر وشو وولز وبرغسون هو الاصطدام بحقيقة لا يمكن الهروب منها أو هو الرغبة الحارة فى إيجاد عواطف دينية رحيمة توازن المنطق العلمى القاسى ؟

لندع هذا الان . ولكن يجب ان نقرر هنا ان هذا المنطق العلمى ينطوى على قسوة تكاد تدفع بالانسان إلى الفرار منه إلي أية عقيدة يتماسك بها كيان

الهيئة الاجتماعية ولو كانت كاذبة . فقد عبر برتراند روسل عن هذا المنطق العلمي أحسن تعبير فى كتابه « طوالع العلم » فوصف كيف يكون الناس حين يستفيض الروح العلمي ويسود الحكومة والتعليم والنظام عامة . فاذا به يخرج بعد هذا بجهنم متقنة الوضع محبوكة الاطراف حيث يتغلب العبقريون ويتزاوجون فيما بينهم فتكون منهم سلالة منفصلة فى بناء الجسم تستبد بالعامة وتحرم على افرادها التعمق فى درس العلوم الخ .

هذا المنطق التامي الذي يخيف الادباء فى انجلترا وغير انجلترا هو الذى يدفعهم إلى تجارب دينية جديدة غير « بصيرة » برغسون . فمن ذلك هذه الثقافة الجديدة التي تنشت فى الاوساط المتعلمة فى أوربا عن درس الاديان الشرقية . ومن ذلك هذه الحماسة أو هذا التلهف لدرس الطبيعيات الجديدة على يد جانز وادنجتون العالمين الانجليزيين اللذين يقولان بان وراء الكون فكراً مدبراً

ولم يبلغوا بعد نهاية هذه التجارب . فمنهم المؤمن القديم ومنهم الذى يوهم نفسه بأنه يؤمن بايمان جديد . ومنهم المتردد ومنهم الملحد الذى سكن إلى الحاده سكون اليأس

ولكن لن نفهم الحركة التجديدية فى انجلترا بل فى عالم الثقافة الاوربية حتى نولى هذه الافكار بعض انتباهنا

ولز

كان الأديب الناشىء فى انجلترا يقضى تلمذته فى درس الشعر والتاريخ والادب القديم . أما الآن فانه يبدأ بدرس الآراء الاقتصادية والاجتماعية . وكان الأديب قبل نحو مائة سنة يقوم حول الآراء الاجتماعية ولا يكاد يمسها أما الآن فانه ينغمس فيها . وتعود هذه الظاهرة الي أن الوسط القديم لم يكن معقداً ولم تكن المسائل الاجتماعية والاقتصادية تبرز بروزها الحاضر وتقسر المفكرين على التفكير فيها ومحاولة حلها . ويجب أن لا ننسى أن الوسط يؤثر فى المذاهب الأدبية كما تؤثر المذاهب الأدبية فى الوسط . وذلك أن الأديب يستمد الهامه من البيئة التى تحيط به سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية أم ثقافية . وهو يستجيب لها أو لواحدة منها بمقدار الصدمة التي يصطدم بها ذهنه منها . فاذا كانت الحال الاجتماعية أو الاقتصادية من التعقيد بحيث تنبه وتوقظ كما هى الآن بمفاجآتها وحروبها وأزماتها وثوراتها فان الأديب الناشىء يضطر الي درسها ويعنى بها أكثر من عنايته بالأدب القديم

وقد سبق أن قلنا أن الثقافة الانجليزية أصبحت اجتماعية . والآن نقول أن الأدب الانجليزى أصبح اجتماعياً . ولو أننا قابلنا بين أديبين عظيمين يغمران عالم الأدب الآن مثل شو وولز بالأدباء الذين عاشوا فى القرن التاسع عشر لألفينا الفرق واضحاً . فان أولئك الادباء لم يعرفوا القصة الاجتماعية كما يمارسها الآن ولز ولم يعرفوا الدرامة الاجتماعية كما يمارسها شو

وقد ظهر أدباء مجددون لهم بريق وحرارة . ولكنهم لم يستطيعوا الى الآن أن يكسفوا ببريقهم شو وولز . وذلك لان هذين الكاتبين تناولا الحياة الانجليزية بمشرط الجراح ودأب كل منهما فى ايضاح العلل والأمراض حتى اصطبغ تفكير المفكرين عامة بآرائهما . وأنت حين تقع على رأى مخيف بل

مرعب للمستر برتراند روسل أو للسيدة زوجته ، أو للمستر هولدمان جولياس أو الآنسة ابنته (فى أمريكا) فانك تستطيع أن تبحث عن البذرة الأولى فى هذين الكاتبين . وأيضاً عند ما تجد أسقف برمنجهام يقف فى كنيسته ويجرح شعور المؤمنين حين يصرح لهم بأن القديس فرانسيس لم يكن يستحم فانك تستطيع أن ترجع فى استقصاء هذه الوقاحة إلى الروح العلمى الذى يكتب به ولز وإلى أن طهارة القداسة عنده لا تساوى نظافة الجسم

ولم يقتصر ولز على القصة الاجتماعية فان دراساته فى الموضوعات الاجتماعية قد تعددت . فانه ألف كتباً مستقلة عن الاشتراكية والتاريخ والتنبؤات الاجتماعية والدين والاقتصاد . وهو لم ينس نزعته الأولى وهى النزعة العلمية فان أول كتاب ألفه كان عن التشريح . وقد حرر — ولم يؤلف — كتابا ضخما عن المعارف العلمية الحديثة . وله قصص يعتمد فيها على نظريات علمية سواء فى البيولوجية أو السيكلوجية . وقد ورث جول فرن فى القصة الخيالية التى تعتمد على العلم وألف فى الحروب الهوائية القادمة وطعام الآلهة والجنون الذى ينشأ من مركب النقص

ومع هذا الروح العلمى الذى يسود ثقافة ولز فانك تقرأ قصته فلا تشعر بأى نقص أو خلل فى فنه . وهو أقرب المؤلفين إلى دكنز وله عطف خاص على الفقراء والمشردين والسكارى . ولكن عطفه ليس عطف البكاء والحزن وانما هو عطف الحب والضحك والاستهانة بمشقات الفاقة والحرمان

وقد ألف قصصاً عن الزواج والحرب والعقاقير . وهو فيها جميعها ينحو نحو غايتين هما الحرية والتقييد أى الحرية للفرد فى تفكيره وعقائده ومسلكه الشخصى والتقييد للنشاط الاقتصادى الذى يجب أن تقوم به الجماعات دون الأفراد . ونقول بعبارة أخرى أنه يطلب الاشتراكية ولكنه لا يريد أن يتقيد بمذهبها كأنها عقيدة ماركسية لا يجوز مخالفتها

ويعد ولز الآن فى أوربا زعيم التفكير الحر والدعوة إلى البر فى السياسة .

فهو ينتقص الدعوة الوطنية ويدعو إلى العالمية وهو الخصم اللدود الآن لموسوليني يجد المهضومون عنده أبداً صوتاً صارخاً لمكافحة الاستبداد . وقد دعا إلى الجمهورية فى انجلترا مع أن العرش محبوب هناك . وانما دفعه الى ذلك كراهته للميزات الاجتماعية التى تنشأ من الميراث

وأدب ولز مع كل ما ذكرنا ، هو أدب صحفى . فلو اننا تناولنا كتابا أو قصة ألفها قبل عشرين سنة لشعرنا بالقدم والتأخر باديين عليها . فقد ألف مثلا قصة عن المرأة التى تطلب المساواة بالرجال وحقوق الانتخاب . وكلاهما قد تحقق الآن . فالقصة لاتدلنا فى سنة ٩٣٣ عن حال نعرفه فى الوسط الراهن . وألف كتابا عن مستقبل أمريكا حوالى سنة ٩٠٣ لو انه قرىء الآن لخالف الواقع وله من هذه المؤلفات « الوقتية » عدد كبير نقصت قيمته أو زالت تماما لانها كتبت لغير وقتنا فخدمت قراء ذلك الوقت وانتهت عند ذلك . وهى هنا تشبه سائر مؤلفاته الاجتماعية التى تعالج أحوالنا الحاضرة فان قيمتها ستزول ولا يبقى غير دلالتها التاريخية . والدنيا دائبة فى التطور ولذلك فان النزعة الصحفية فى الكاتب ستعمل لفنائه لا لخلوده . وهذا الفناء هو فى الواقع تضحية الكاتب بنفسه من أجل جيله

ولسنا نعنى أن كل ما يكتب عن التطور الحاضر من المدنية ستزول قيمته الفنية عند ما يتبدل هذا التطور . وانما نعنى ان شيئاً كثيراً من قصص ولز ودراساته قد اصطبغ بالصبغة الوقتية « الصحفية » ولذلك ستفقد فيه الأجيال الآتية ما نجده نحن الآن من لذعة الحقائق ومرارة الواقع

وأغلب الظن أن ما سيعيش للأجيال الآتية من ولز هو القصص المسلية مثل كبس أو بيلبى التى لم يؤلفها إلا ليرفه عن نفسه سأم الدرس لهذه الفوضى التجارية والصناعية والمالية التى تجتاز بها انجلترا الآن . وذلك لأن هذه الفوضى ستزول فلا يعود يباليها جمهور القراء أو يقرأون عنها تفاصيلها المؤلمة فى كتب ولز . ولكنهم سيحتاجون الى الضحك بقراءة كبس الفقير الذى

أثرى فجأة فلا يعرف كيف يعيش عيشة الأغنياء أو بقراءة بيلبى الصبى الهارب من أمه الذى يشرد فى الحقول ويشارك رجلا قد احترف التشرد والسرقة فيتعلم منه حرفته ويسرقه هو نفسه ثم يعود الى أمه وقد تعب من قلق العيش فى التشريد ينشد أمن الحياة بين ذراعى الأم

ولكن اذا كانت هذه الكتب « الصحفية » لن تعيش فذلك لانها أدت مهمتها فى الاصلاح الذى نشده مؤلفها . فاذا ماتت هذه الكتب فان موتها برهان نجاحها

وقد سبق أن رأينا مثل ذلك فى درامات ابسن . فان « بيت عروس » مثلا كانت تعد من الدرامات الثائرة لانها تطلب للمرأة شخصية مستقلة عن الزوج والأولاد . ولكن ثورتها ضعفت لأن الناس قد آمنوا بهذه الافكار للمرأة وصرنا نحن لذلك لانستطرفها ولا نستهول آراءها . وهذا برهان على نجاحها لا على فشلها اذ أن نفوسنا نحن المتمدنين قد أشبعت بها حتى لا نجد فيها جديداً

دراسات ولز الاجتماعية

إذا تحدث الانسان عن الادب الانجليزى خطرت القصة بالبال ولكن ليس معنى هـذا أن القصة هى أحسن مافى الادب الانجليزي وانما معناه أنها تغمره بكثرتها . ففى كل عام يطبع فى انجلترا نحو ثلاثة آلاف قصة ٩٩٩ فى الالف منها هو مجموعة من الهراء والسخف والعواطف المبهرجة . والادب الانجليزى الآن أوسع من ان ينحصر فى القصة أو الدرامة لان الاديب يعالج ألوانا وصيغا أخرى تتناول الترجمة أى السيرة التحليلية بل تتناول أحيانا التاريخ . وفى انجلترا لون من ألوان الادب قلما يتقنه غيرهم هو المقالة التى ترجع فى تقاليدها إلى ستيل وأديسون وماكولي . وللمقالة مقام فى انجلترا الآن يزيد على مقام القصة وقد عالجها جميع المجددين والرجعيين مثل شو وولز وتشسترتون وبيلوك

وقد وجد برنارد شو أن الدرامة تعجز عن التحليل الكافى الذى يفى بتفاصيل الموضوع . وهو لذلك يزود الدرامة التى لا تزيد صفحاتها على خمسين بمقالة قد تبلغ مائة صفحة . ومقالات ولز لاتنقص فى القيمة الفنية عن قصصه . وهل هناك من القصص الحديثة مايسمو على ما كتبه أندريه موروا أولبتون ستراكى من السير التحليلية ؟

ويبدو أن الادب الانجليزى سيمعن فى الاتجاه الى هذه النواحى وذلك لانه يغزو ميادين جديدة فى الثقافة . فالاديب يكتب الآن فى الاقتصاديات والاجتماعيات وكثيراً مايجد أن القصة أو الدرامة أداة ناقصة لاتفى بغرضه فهو لذلك يعمد الى المقالة فيؤلف أجزاءها حتى تستوى جسما فنياً يروق الذوق بشكله كما تحرك الذهن بموضوعه

لقد بدأ ولز يؤلف القصص وانتهى بتأليف المقالات والكتب . ولم يكن فى ذلك منحدراً وإنما كان صاعداً . لانه وجد أنه كلما ازداد تثقفاً تناول ذهنه من الموضوعات ماتعجز القصة عن إيفائه حقه . وقد راجت مؤلفاته — غير القصص — رواجا عظيما جداً . فان مؤلفه فى التاريخ العام بيع بمئات الالوف وترجم إلى جميع اللغات الحية تقريباً وتعددت طبعاته فمنها الانيق المزخرف الذى يباع بالجنيهات ومنها مايبع بخمسة قروش فقط

وللمستر ولز كتب عدة فى الاشتراكية أو التفكير الاشتراكى الذي يصبغ قصصه أيضا . وقد عالج الاقتصاديات فى كتاب ضخم لايصدق من يقرأه أن مؤلفه من أبرع القصاصين فى انجلترا الآن . ثم هو قد امتد نشاطه إلى العلم ولذلك حرر كتابا فى المعارف العامية بمساعدة ابنه وحفيد هكسلى تناول فيه تلك المعارف التى تؤثر فى سعادة الانسان . بل لقد ألف كتابا عن التعليم وصف فيه مدرسة جديدة هى مدرسة أوندن التى ابتكر مديرها ساندرسون نظرا جديداً للتعليم هو أن يكون عملى الغاية . وهذا النظر هو الذى حدا بولز إلى تأليف التاريخ العام

ويعتمد ولز كثيراً على العلم . فاذا تخيل « طوبي » أو مثلا أعلى للمعيشة كان العلم أساس خياله . وما هو ان ظهرت نظريات فرود فى العقل الباطن حتى سارع إلى استغلالها فألف قصة « والد كريستينا » وهو مجنون يعالج بالتحليل النفسى على طريقتى فرود ويونج

ومن أعظم مايؤسف القارىء ويشعره بالمأساة الانسانية هذه الحيرة التى تقلب فيها ولز وهو يحاول ان يؤمن بمبدأ روحانى وراء المادة . فانه بدأ بالاعتقاد أن لله شخصية مستقلة عنا ثم أخذ يستند إلى آراء يونج السيكلوجي السويسرى المعروف ويقول ان العقل الباطن عندنا إنما هو عقل النوع البشرى كله . وان لهذا العقل الجماعى شخصية مستقلة عنا كأننا يجب أن نؤمن بها

ايمانا ، وأخيراً وبعد التخبط الطويل انكفأ الى نفسه يتكلم فى تواضع كما يتكلم البشريون . وقد لايكون هذا عجباً من رجل نشأ نشأة علمية له كتاب فى تشريح الحيوان وأشرب مبادىء هربرت سبنسر المادية . فانه وان كان قد عرف بعد ذلك وليم جيمس السيكلوجي الامريكى أول من دعا دعوة روحية عن طريق السيكلوجية فقد بقى فى نفسه الميل الى التحليل العلمى وهـذا الميل لم تؤثر فيه الروحيـة الجديدة التى انطلق فيها كل من ادنجتون وجانس بلا سبب معقول لان كل مايستندان اليه انما هو شكوك علمية . وكذلك لم يتأثر كما تأثر شو ، بالمبدأ الحيوى الذى يقول به برجسون

وقد أصبح ولز كتلة عقائد . فان آراء الشباب التى كان يتبسط فى شرحها فى مقالاته وقصصه أصبحت بعد ان بلغ الخامسة والستين من عمره عقائد جامدة . فهو اشتراكى يطعن من آن لآخر على ماركس زعيم الاشتراكيـة . وكأنه بذلك يريد ان يثبت استقلاله . وهو عالمي يطعن فى الوطنية ولـكنه لايكف أيضا عن الطعن فى عصبة الامم مع أنها بذرة العالمية . ثم هو مع هـذا يريد حضارة غربية قائمة على الآلات الضخمة التى تزيد فراغ النـاس . ويريد ديانة بشرية قوامها قصة التطور . ويريد نظاما علميا للحكومة بحيث يصبح تنظيف الشارع وبناء المنزل واطعام الاطفال وتعليمهم بل اسـتنتاجهم من مهماتها الاولى

وإذا أردنا أن نقابل بين شو وولز أمكننا أن نقول ان ذهن شو هو ذهن التحليل والنقد والهدم بينما ذهن ولز يتجه نحو التأليف والبناء

ويعيش ولز فى الحضارة القائمة الآن وهو يعد الناس لحضارة قادمة . فهو أكثر الـكتاب شعوراً بأن أوربا تنتقل الى النظام الاشتراكى القريب . وهو يطالب المعلمين والـكتاب أن يعدوا الناس لهذا الانتقال . ثم هو يرى الخطر العظيم من التهاون فى فهم هذه الحقيقة لان آلات التدمير أتقنت اتقانا فظيعا فاذا تركنا السياسة الحاضرة تجرى مجراها والتنافس التجارى يسير سيره الطبيعى

لم يكن مفر من حرب كبرى أخرى قد تقضى على الحضارة . ومع أن الاشتراكيين الانجليز يقبلون الملوكية القائمة فان ولز يلح فى طلب الجمهورية ويصرح بذلك فى الصحف وغايته أعداد الامة الانجليزية للنظام الصناعى الجديد وهو نظام اشتراكى . ثم هو لا يعرف التسوية مع خصومه . فهو خصم صريح للبابوية والفاشية كما هو خصم للملوكية والوطنية والحرب والتعصب القومي أو الدينى

ثم هو بنزعته العلمية لا يرضى النظم البرلمانية الحاضرة لانه يعتقد أن أحوالنا الاقتصادية قد بلغت من التعقد بحيث تحتاج إلى خبراء أى علماء فى الصناعات والعلوم والاقتصاديات وأن الاعتماد الآن فى ادارة شئون الامة على أيدى السياسيين انما هو بمثابة لعب الاطفال بالنار . ويرى فى هذه الازمة القائمة البرهان على ذلك

ولز بين الوطنية والعالمية

ليس فى العالم خصم للوطنية يدعو إلى العالمية مثل ولز . وهو على هذه الحال منذ نحو ثلاثين سنة لم يتغير حتى مدة الحرب فانه هو الذى وضع عبارة « الحرب لانهاء الحرب » أى أنه كان يدعو الانجليز إلى التجند وقتال الألمان لكى تكون هذه الحرب الكبرى نهاية الحروب بأقامة هيئة تقضى القضاء النافذ فى الخلافات التى تقوم بين الأمم فلا يحق لدولة أن تعلن حرباً على دولة أخرى بل لايجوز لدولة أن تجند جيشاً

وفى هذا العام ألقى خطبة فى مدرسة الأحرار الصيفية فى اكسفورد فدعا إلى إنشاء عصبة من الفاشيين الأحرار لكى يقاوموا الفاشيين الذين يدعون إلى الوطنية الحادة مثل اتباع موسوليني فى إيطاليا أو اتباع هتلر فى ألمانيا

فالرجل لم يتغير عن دعوته الأولى التى دعا إليها حوالى سنة ١٩٠٢ وهو فى هذه الدعوة يرث الرسالة من فولتير وروسو وسائر البشريين من الانجليز والفرنسيين . وقد ألف كتابه « خلاصة التاريخ » وهو ينظر إلى العالم كأنه أمة واحدة والكرة الأرضية عنده هى « القرية الكبرى » لجميع البشر . ولذلك أيضاً طعن فى كل من الاسكندر ونابليون لانهما من رجال الحرب والفتح. وترتيب هذا الكتاب هو بدعة فى تأليف التاريخ فانك لاتجد فيه تاريخاً لكل أمة على حدتها وإنما تجد موكباً سائراً يدلك على التقدم البشرى بصرف النظر عن الأمة التى ينتسب اليها هذا التقدم

ومنذ ثلاثين سنة أيضاً اقترح تأليف حزب أو عصبة يكون أعضاؤها من جميع الأمم يسيرون فيما سماه « مؤامرة مكشوفة » غايتها هدم الوطنية والاتجاه بالناس إلى الحرية والعلم والعالمية أى أن يكون العالم كله أمة واحدة لها حكومة مركزية تتولى التعليم والنظام المالى . وهذه الهيئة يجب أن تؤلف للعالم موسوعة كبيرة تترجم إلى جميع اللغات فتكون دستور الثقافة ويعاد تنقيحها من آن لآخر لكى تتجدد معارفها . فاذا قرأها جميع الناس فى مختلف الأمم اتفقت

آراؤهم السياسية فلا يكون تعصب يبعث على التنافر والحروب

ثم يجب أن تأخذ هذه الهيئة نظام التعليم أيضاً فتمنع مثلا تدريس التاريخ إذا كان يبعث فى التلاميذ روحا وطنياً كما يجب أن يستوى جميع التلاميذ فى العالم فى الحصول على أوفى قسط من التربية لان الجهل الذى ينشأ فى أمة ما من إهمال التعليم قد يؤدى إلي خطر كبير على سائر الأمم . بل هو يرى أن تقوم هـذه الهيئة بأيجاد دين عام أو بعبارة أصح مزاج دينى عام لجميع الأمم بحيث لا يؤدى التعصب الدينى فى واحدة منها إلى إيقاع خطر بالأمن العالمى

ثم هو يرى أن تحقيق هذا النظام العالمى لا يمكن إلا مع إنشاء نقد عالمى واحد يتعامل به جميع البشر . فلا بد إذن من إنشاء بنك للعالم يتولى إصـدار النقود سواء أكانت من ورق أو من معدن

وفى ولز خصلتان تتضحان فى جميع مؤلفاته احداها نشاط فى نفسه يدفعه إلى الاعجاب بنشاط الآخرين ولو كانوا من خصومه. والثانية دأبه فى التنظيم والترتيب

فهو يدعو إلى إنشاء عصبة من الشبان يتولون تهيئة الأذهان واعداد العالم للدولة العالمية التى ينشدها . وهو هنا يضرب المثـل بالفتيان الكشافة وفتيان الفاشيين مع انه يكره نزعاتهم الحربية الوطنية . ثم هو لا يكف عن التنظيم. فانه يؤلف القصة ويتعال بما فيها من حب واغراء جنسى لكى يشرح نظاما عن تأليف موسوعة أو موسوعات مختلفة

وقد استهوت هذه النزعة الولزية عدداً كبيراً من المفكرين فى كل أمة .

ومع أن الآمال التى عقدت بعصبة الأمم خابت وعرف الناس أن مبادىء الرئيس ولسون ضرب بها عرض الحائط وأن الانتداب هو الاستعمار لا يختلف منه إلا فى الاسم فان كثيراً من التأييد الذى تلقاه هذه العصبة يرجع الى هذه النزعة التى بعثها ولز والتى تجعـل الناس يتشبثون بعلالات العالمية أو الأممية ويرجون من العصبة المريضة أن تعود فتنهض وتكون بذرة لحكومة قوية تدير مصالح العالم العامة

ولا يفتأ ولز يجمع الشواهد والبراهين التى يقصد منها الى اقناع القارىء بأن خيـاله يمكن أن يتحقق . فهو يذكر لك « اتفاق البريد » بين جميع الأمم وانه نظام عالمى . ويذكر لك المعهد الأممى لاحصاء القمح فى رومية . فان هذا

المعهد قد أنشأه رجل يهودى أمريكى وحبس عليه أوقافاً . وله مندوبون فى جميع أنحاء العالم يجمعون الاحصاءات التى تذاع على العالم عن حاصلات القمح لكى تعرف الأمم مقدار القمح وتحتاط للمستقبل . وليس شك أن هذ المعهد قد أفاد العالم وانه يمكن التوسع فى هذه الخطة . فنزداد مثلا أعمال هذا المعهد حتى يستطيع أن يخرج احصاء كل عام عن جميع الحاصلات الزراعية والمعدنية . ومن مصلحة جميع الأمم أن تقف على هذا الاحصاء الدقيق لأن جهلها قد يؤدى بها الى نتائج اقتصادية توقعها فى خسائر كبرى

وهذه العالمية هي حلم فقط لأن النزعة التى تسود العالم السياسى الآن هي النزعة الوطنية . ولذلك نجد جميع الأمم تسارع الى اقامة السدود الجمركية وتدعو الى الوطنية الاقتصادية . وفى الوقت الذى يدعو فيه ولز هذه الدعوة العالمية يدعو فيه ولي عهد بريطانيا دعوة وطنية بندائه المشهور : « اشتروا البضائع البريطانية »

والمتأمل لاحوال العالم فى ضوء هذه الازمة الحاضرة وأمام تاريخ الاستعمار والأسباب الرئيسية للحروب وخاصة بعد أن أخذت مدرسة الاقتصاد الجديدة بقيادة الميجر دوجلاس تشرح نظرياتها وتبسطها بسطاً وافياً لايمكنه الا أن يعتقد بأن التنافس فى التجارة الخارجية هو السبب الأساسى للاستعمار . واذن فكل ما يعمل لنقص التجارة الخارجية يعمل أيضاً لتخفيف الاستعمار ويمنع فى الوقت نفسه أقوى البواعث على الحرب . فان القائلين بالعالمية يقولون بالغاء الحواجز الجمركية وأن تختص كل أمة بالصناعة التى يليق لها مناخها ثم تبادل الأمم الأخرى ما تصنعه من المصنوعات أو ما تنتجه من الحاصلات . وبديهى أن من يقول بحكومة عالمية يجب أن يقول بحرية التجارة على أوسع معانيها

ولكن حرية التجارة تبعث على المزاحمة التجارية والسعى للاستيلاء على أسواق العالم . وقد حاربت بريطانيا الصين لكى تجبرها على شراء الأفيون الهندي مع أن الصين كانت قد منعت الاتجار به . والسبب الاساسى للحرب الكبرى هو هذا السباق الى أسواق العالم بين بريطانيا وألمانيا . والاساطيل لايقصد منها حماية الوطن وانما يقصد منها حماية التجارة الخارجية . وأكبر

تعتمد على حرية التجارة أو كانت كذلك الي عهد قريب هى بريطانيا ولذلك كانت أيضاً صاحبة أكبر الأساطيل

وكذلك حرية التجارة هى التى تبعث على الاستعمار . فان اختصاص بعض الأمم مثل ألمانيا وبريطانيا بالصناعات قد جعلها تحتاج الى المواد الخامة بمقادير كبيرة . وكان من احتياجها هذا أن استولت على الأقطار التى تنتج القطن والبترول والحاصلات الزراعية . بل لقد أثبت التاريخ أن الأمم الصناعية كثيراً ما أجبرت مستعمراتها والامم الصغيرة على الاقتراض منها لكى تبقى مرتبطة على الدوام بها بل لكى تبقى مستعبدة لها

فالحرب والاستعمار كلاهما نشأ بصورته المفزعة الحاضرة من حرية التجارة واختصاص بعض الامم بالصناعات دون البعض والرغبة الحارة فى غزو الاسواق .

واذن يكون العلاج لهذه الحال الرجوع الي تقييد التجارة الخارجية وتقليلها بأقامة حواجز جمركية لكل أمة بحيث يستوعب الاستهلاك الداخلى فيها نحو ٩٠ فى المائة من حاصلاتها ومصنوعاتها فلا يبقى للتبادل التجارى مع الأمم الأخرى سوى نحو ١٠ فى المائة . وهذا مقدار ضئيل لا يبعث أمة على الحرب أو الاستعمار

ثم أن للحواجز الجمركية قيمة أخرى اذ هي تزيد ثقافة الأمة العلمية . فان الصناعات الآن تعتمد على العلم ومن مصلحة كل أمة أن تثقف هذه الثقافة فتحمى صناعاتها من الواردات الأجنبية وتباشر بنفسها صنع المصنوعات . وهذا خير لها حتى لو كان يمكنها أن تحصل علي هذه المصنوعات من الاقطار الأجنبية بما هو دون أثمانها فى بلادها . لان هذا الفرق هو ثمن ثقافتها العلمية الصناعية

فالمذهب العالمى الذى يقول به هـ . ج . ولز خيال جميل . ولكن ظروفنا الحاضرة والازمة القائمة الآن تلهمنا طريقاً آخر لتوقى الحروب والكف عن الاستعمار نعنى به الدعوة الى الوطنية الاقتصادية بتنشئة الصناعات وحمايتها بالحواجز الجمركية وبهذه الوطنية الاقتصادية ستمنع المزاحمة التجارية فى أسواق العالم . وبامتناع هذه المزاحمة تقل الحروب كما تقل الحاجة الى الاستعمار

جالزورثي

لما منحت جائزة نوبل لجالزورثي دهش جمهور الادباء أو قراء الادب . فان اختيار هذا الاديب الانجليزى وتميزه من بين جميع أدباء العالم بهذه الجائزة السنية يدل على ان المستوى الادبي فى العالم قد انخفض قليلا . فان جالزورثى أديب « انجليزى » يكتب للانجليز ولذلك فان بصره وبصيرته محدودان بالبيئة الانجليزية وقلما تجد له قراء فى القارة الاوربية أو فى القارة الامريكية

والاديب العظيم الان لايتمتع بارتقاء عرش الادب فى بلاده فقط لانه هو بطبيعة العلاقات البشرية الان يسمو الى الامبراطورية لا الى الملوكية فى الادب. فنحن فى عصر قد صغر اليه العالم وأصبح على حد قول ولز « قريتنا الكبرى » تضطرنا الصحف فى الصباح الى ان نفكر فى الاستعمار الياباني فى منشوريا وتضطرنا الازمة فى بلادنا الى ان ندرس عواملها فى انجلترا والشرق الاقصى. وقد أصبح غاندى كانه زعيم وطنى لكل بلاد منكوبة بالاستعمار . وأصبحت البطالة والاجور والاراء عنهما تدرس فى المانيا على ضوء الاحوال الجديدة فى الولايات المتحدة . فالامم الان تتفاعل كما تتفاعل العناصر فى المعمل الكيماوى . ففى افريقيا الجنوبية يؤسس غاندى « مزرعة تولستوى » وأناطول فرانس يمنح ثمانية آلاف من الجنيهات (وهو مقدار جائزة نوبل) لتخفيف الفاقة فى روسيا ، وبرنارد شو يتكلم عن دنشواى كما يتكلم عنها المصرى الوطنى. ورومان رولان يغادر بلاده لانه ينكر عليها الحرب مع المانيا . الخ

وفى مثل هذه الظروف العالمية لايمكن الانسان ان يعد أديبا فى الطبقة الاولى مالم تتجاوز همومه وطنه الى البشر كافة . لان الادب كالدين يجب ان يتجاوز الحدود الوطنية . ولو ان جائزة نوبل أعطيت لولز لكان الاجماع على سداد هذا العمل عاما من جميع الامم . والفرق بين ولز وجالزورثي هو ان الاول

يخدم العالم ويدرسه ويشتغل بهمومه فى الثقافة والاخلاق بينما الثانى يقصر درسه على انجلترا

ولا يناقض هذا الكلام ان النزعة الاقتصادية الحاضرة تتجه نحو الوطنية لان المقصود منها هو توفير الثروة والثقافة العلمية . وإذا اتفق فى المستقبل توفيرهما بدون هذه النزعة فان الاستغناء عنها لن يكون شاقا

ونحن عند ما نفحص عن أديب انجليزى ونتحرى بواعثه لا نستطيع أن نهمل رأيه عن الاستعمار البريطانى لان هذا الاستعمار ينكب العالم نكبة واضحة كما لا نستطيع أن نهمل رأى الاديب المصرى عن المرأة أو الفلاح . وإذا نحن الفينا فيه اهمالا أو نقصا فى درس هذا الموضوع جاز لنا أن نحكم على ضميره بالنقص . فان أديبا يرى دولته تملأ اقطار العالم بالولاة والمحافظين والمندوبين السامين لكى يحكموها على الرغم منها ويقهروا فيها الحرية ويعطلوا فيها الثقافة ويحبسوا فيها زعيما من زعماء الانسانية مثل غاندى لجدير بأن يتهم فى ضميره الادبى إذا سكت . وجالزورثى لم يقل كلمة فى استنكار الاستعمار البريطانى

ولا يذكر جالزورثى حتى يخطر بالبال ارنولد بنيت . فانهما يشتركان فى درس الطبقة الانجليزية المتوسطة ولكن جالزورثى يدرسها ويستنكر اكبابها على جمع المال وإهمال الفنون وجمود الضمير بينما الثاني لا يرى فيها إلا كل ما يحب ويستحق الاعجاب . ثم ان ارنولد بنيت يعد من أبناء القرن التاسع عشر ينزع الى الانفرادية ويؤمن بهربرت سبنسر فى المادية العلمية والنزاع الاقتصادى ويسلم بفضيلة الاعتماد على النفس فى الوسط الصناعى الحاضر ويكبر من شأن النجاح وله كتب سخيفة فى هذا الموضوع

ولكن جالزورثى أعمق نظرا منه إذ هو يستطيع أن يرى من خلال النجاح المالى والاجتماعى خللا فى البيئة ونقصا فى الاخلاق . وهو من ابناء القرن العشرين ينزع نحو الاشتراكية وان كان لا يصرح بها . وقد رفض لقب « سير » وعطف على المظلومين سواء أكان الظلم اجتماعيا أم

اقتصاديا . وهو من حيث الفن يعد من أبرع الادباء سواء أكان هذا فى القصة أم فى الدرامة

وهو عندما يكتب يقنع بالتقرير والتصوير ولا يقترح علاجا . فقد وصف آلام المسجونين فى درامة « العدالة » فكان وصفه من الدقة والفظاعة بحيث استجابت له الحكومة فى اصلاح السجون ولكنها لم تصلح القانون الذى يبعث بالمنكوبين إلى هذه السجون . ومن أعظم مشاهد هذه الدرامة مسجون قد ضاق بحبسه فى الخلية أي الزنزانة فأفرج عن ضيقه بثورة عصبية إذا اندفع يخبط الحيطان ويضرب الباب

ثم هو يلزم الحقائق فلا يزوق ولا يتخيل غير الواقع . فهذه « ايرين » مثلا فتاة جميلة فقيرة قد تزوجت رجلا غنيا من تلك الطبقة التى تنتمى عادة الى حزب المحافظين وتؤمن بعبء الرجل الابيض وتعرف الدين فى الكنيسة فقط ويوم الاحد فقط أما سائر الاسبوع فلاتعرف غيرالتجارة الحرة والمزاحمة التى تجرى على سنة الحرب كل شيء جائز فيها . وهي تؤثث البيت بأفخر الاثاث ولا تعرف من الفنون غير الصور الغالية فى الثمن

ولكن ايرين تسأم هذا الزوج وتهجره وتحب مهندساً فقيرا . ثم تضطرب الاحوال المالية لهذا المهندس فينتحر . ثم تعود ايرين الفقيرة الى زوجها الغنى وهي صاغرة

ويسكت جالزورثى فلا يعظ القارىء ولا يلوم الزوج ولا يعلق على هذه الحال أى تعليق لانه يقنع منك بهذا التنهد الذى يضيق به صدرك عن هذه عن هذه الحال المؤلمة . وانت عند ما تقرأ مثل هذه القصة تحب جالزورثي

وقد مات صغيراً فى العام الماضى ولما يبلغ الخامسة والستين . ووفاته فى هذه السن مأساة لأن الآمال كانت معلقة به بعد أن استضاءت بصيرته بالحرب والازمة

رجال الذهن فى انجلترا

ليس التجديد مقصوراً على رجال الادب من مؤلفى الدرامات وممارسى الفنون الجميلة . وان كان هؤلاء أقرب إلى الجمهور وأعمق أثراً فيه من غيرهم لأنهم يتصلون بعامته وخاصته بما يؤلفونه من قصص أو يعرضونه من درامات أو حتى بما ينحتونه من تماثيل أو يرسمونه من صور . فان هناك هيئات أخرى تعمل للتجديد . وقد تكون هذه الهيئات جمعيات ترصد نفسها لبث دعاية لآراء ثقافية خاصة أو قد تكون مجلات تعيش بجهود محررها وعطف طبقة من رجال الذهن عليها أو قد تكون قائمة على أيدى أدباء أو علماء يؤلفون الكتب فى نزعات جديدة فى الآراء الاجتماعية أو العلمية أو الادبية

فهناك مثلا جمعية تدعى « جمعية العقليين » قد طبعت ونشرت إلى الآن ملايين من المجلدات من الكتب التى تدعو إلى التفكير الحر والاعتماد على الرأى العلمى دون العقيدة الدينية . وقد كان لهذه الجمعية أعظم الاثر فى تطور الافكار بين شباب الانجليز بل شيوخهم . وهناك جمعية أخرى تدعو إلى الفلسفة الوضعية التى يقول بها كونت الفيلسوف الفرنسى . وقد بقيت أكثر من ثلاثين سنة وهي تصدر مجلة كان يكتب فيها الاديب الكبير فردريك هريسون ويدعو فيها إلى نوع من « البشرية » هو وسط بين الرأى والعقيدة

ثم هناك إلى هذه الجمعيات ، رجال الذهن الذين ينتمون إلى العلم أو الدين أو الاجتماع فيدأبون فى نشر آرائهم التى استنبطوها من دراساتهم . وهم يعملون لنشرها بين الجمهور بمختلف المؤلفات . وأعظم مثال على هؤلاء ذلك اللورد العجيب الذى يبهر الناس بذكائه وثقافته ويهدم ما يحترمونه من عقائد نعنى به « المستر » برتراند روسل . فان القارىء لمؤلفاته يشعر أن برنارد شو ، بالنسبة

اليه ، يعد من الجامدين فى أشياء كثيرة . إذ هو يكتب عن الامبراطورية البريطانية والزواج والصناعة والدين بروح جرىء . ولو أن أحد المفكرين فى القرون الوسطى نسب اليه كتاب واحد من مؤلفاته لكان كافياً لاحراقه . وهو عالم ينظر إلى الاجتماع نظرة مادية محضة ثم هو مخلص أشد الاخلاص فى تفكيره إذ هو لا يعرف المداعبة عن الصوفية العلمية التى يحرق فيها العلماء مثل جانس أو ادينجتون ولا هو يستطيع أن يداهن الوطنيين الانجليز بكلمة مديح عن تاريخهم أو أمبراطوريتهم إذ هو يصرح بأن هذه الامبراطورية تعوق التقدم فى العالم

ثم هناك مفكر آخر من رجال الذهن هو هافلوك أليس . فانه اختص منذ أكثر من ثلاثين سنة بدرس التناسليات فاشع على هذا الموضوع فيضاً من الضوء الذى استخلصه من ثقافته العلمية . وهو لا يستطيع الوصول إلى الجمهور ولكنه يهيىء الخميرة الخاصة من الادباء والسحيين الذين يعلمون هذا الجمهور . ولا يمكن انسانا يقرأ مؤلفات هذا الرجل المثقف إلا ويتأثر بها

وكل من برتراند روسل وهافلوك أليس يدعو إلى التمتع بالحياة والى ان يعيش الانسان ملء حياته فلا يقتر على نفسه ولا ينكر عليها لذة الذهن أو لذة العواطف . وكل منهما يعد من هذه الناحية الوارث الشرعى لدعوة النهضة الاوربية فى القرن الخامس عشر . فان هذه النهضة هي فى لبابها وصميم الغاية التى نشدتها دعوة الي التمتع بالدنيا (على حساب الآخرة) والاكبار من شأن الجسم (على حساب الروح) ومن ذلك العصر الى الآن والتجديد فى أوربا سواء أكان فى الادب أو الفنون يتجه هذا الاتجاه . وعلينا نحن « الشرقيين » أن نعرف ذلك وندركه حق الادراك كلما أردنا أن ندرس ثقافة أوربا أو مزاجها الادبي أو المقصود من حركاتها التجديدية وقد نكره نحن هذه النزعات وليس شك أن فيها كثيرا مما يكره ولكن يجب ألا نخدع أنفسنا عن حقيقتها

ومن رجال الذهن الذين أثروا أثرا غير صغير فى التفكير الانجليزى

القسيس الخ . فان هذا القسيس يرتأى من الآراء مالو أعلن هنا فى بلادنا لعد الحاداً أو كفراً ولكنه مع ذلك يحتفظ بمنصبه فى الكنيسة الانجليزية وهو منصب سام . وهذا برهان على مدى الحرية التى يتمتع بها رجال الدين فى انجلترا . ولم يغب عن ذهننا تلك الثورة الصغيرة التى قام بها أستف برمنجهام (وهو دكتور فى العلوم) حين صرح بأن القربان المقدس فى الكنيسة لايمكن أحداً أن يثبت قداسته بالتحليل الكيماوى . ولا يزال هذا الرجل فى منصبه مع ذلك لايجد الاحترام فقط بل يجد العطف من الجمهور

والقسيس الخ وأستف برمنجهام كلاهما يعمل للتجديد فى الدين وينتشر منهما روح الحرية الفكرية إلى الصحف والقصص والخطابة . ومن هذه الوسائل الاخيرة مايبلغ الجمهور فيؤثر فيه . ولكن ذكرنا للقسيس الخ ولبرتراند روسل فى فصل واحد قد يوهم القارىء بالاشتراك فى الآراء . ولكن الحقيقة ان الفرق بينهما شاسع وانما هما يشتركان فى النزعة إذ كلاهما مجدد فى ميدانه . وميدان الاول هو الاجتماع وهو ميدان حر وميدان الثاني هو الدين وهو كثير العقبات والقيود

وللمفكرين الاوربيين أثر آخر فى تجديد الفكر الانجليزى لايقل عن أثر المفكرين من الانجليز أنفسهم . فان فرود وبرغسون ونيتشه وسبنجلر وكوهلر تقرأ مؤلفاتهم بشراهة بل تؤسس المجلات لدرس مذاهبهم

وعلى ذكر المجلات نقول انها فى انجلترا تزود المفكرين بالمواد الخامة للتجديد . وليس فى العالم شىء يعمل للتثقيف بين الجمهور مثل المجلات الانجليزية الاسبوعية . فانها وان كان عدد قرائها قليلا تعيش بما تنشر على الناس من آراء سياسية واجتماعية وأدبية . وقد تجد فى انجلترا جريدة أحدية أى تصدر يوم الاحد ولها من القراء مليونان أو ثلاثة ملايين . ومع ذلك فانها لاقيمة لها أصلا عند ما تبدى رأيا فى السياسة أو الادب بينما العالم السياسى يهتز اهتزازاً إذا

كتبت مجلة اسبكتاتور أو نيوستيتسمان أو ويك اند مقالا عن أحد الاحزاب أو احدى الخطط . وقد لايزيد قراء احدى هذه المجلات على عشرة آلاف

ولهذه المجلات الاسبوعية تأثير كبير لان قراءها صفوة الامة ولهم النفوذ والسلطان فى تقرير الخطط وتكوين الرأى العام وتسويغ البدع أواستنكارها . وقد كانت مجلة النيشن عقب الحرب قوة كبيرة فى يد محررها العظيم ماسنجهام . فانه هو الذى أكسب التفكير السياسى فى انجلترا روح التسامح نحو الاشتراكية إذ كان هو نفسه من الاحرار الذين يميلون إلى حزب العمال

وهناك مجلات أخرى هي أدوات التجديد فى جميع مناحى الحياة . ونحن نضع فى المقدمة المجلة التى يحررها الدكتور جاكس نعنى بها « هبرت جورنال » فانها مجلة دينية ولكنها تكتب فى البوذية والاسلام والافلاطونية والمادية فتملأ أذهان المفكرين ذخيرة للتجديد الدينى . وهناك مجلة « نيو انجلش ريفيو » التى تكاد تقصر نفسها على الدعوة الى التجديد الاقتصادى بزيادة الاستهلاك على طريقة دوجلاس . ومحررها أوراج رجل معروف منذ ثلاثين سنة يدعو الى نيتشه والادب الجديد . ثم هناك مجلات صغرى تلتف حولها جماعات خاصة من الادباء وتنزع نزعات خاصة مثل « كريتيريون » و « أدلفى » فان جميع الثائرين فى الادب الانجليزى رأوا النورعقب ميلادهم فى عالم الادب فى صفحاتهما

وهذه المجلات ، ثم أولئك المفكرين الذين ذكرنا بعضهم ، هم الذين يمدون الادب الانجليزى الحديث بوسائل التجديد واليهم يرجع الفضل فى النزعات الجديدة التى نجدها فى ألدوس هوكسلي ولورنس وجويس . لانهم يقدمون المواد الخامة التى يتربى بها الاديب يأخذها تبراً مخلوطاً مشوشاً فيصهرها فى ذهنه ويخرجها ذهباً ناصعاً فى قصة أو درامة تستعذب وتستجمل . ولسنا نقصد من هذا الى ان الاديب لايبحث بنفسه فى البيئة الاجتماعية التى يعيش فيها أو انه لايكتسب اختباراته منها مباشرة وانما نريد ان نقول ان أدباء الانجليز المجددين تحيط بهم بيئة ثقافية تعينهم على التفكير والتجديد بل تحفزهم اليهما

التائرون

نقصد بالثائرين الذين جاءوا عقب المجددين وتتلمذوا لهم ولكنهم خطوا خطوة أخرى أبعد منهم وفتحوا ميادين جديدة حاول أولئك المجددون أن يفتحوها . ولكنهم لم يستطيعوا لان الزمن لم يكن قد هيأ لهم بعد أسباب الفتح

وهؤلاء الثائرون جاءوا مدة الحرب وعقب الحرب ورأوا المدنية تضرى وتستوحش أمام اعينهم وتهدم ماتعاموه من اخلاق أو اديان . فخرجوا منها وقد انكروا كل شيء تقريبا وشرع كل منهم يؤسس لنفسه إيمانا جديداً يخلص له ويدعو اليه . ولم يعد الادب عند هؤلاء الثائرين صنعة تحتاج الى الدرس والتأنق وتوخى مايحبه الجمهور القارىء والوقوف على اسرار الفنون وغايتها وانما هو عندهم بحث عن أرشد الطرق لان نعيش فى هناء على هذه الارض . وهم لهذه الغاية يعتمدون على أنفسهم ويكتبون تراجمهم أو تراجم اصدقائهم ، الذين عرفوهم ، فى صيغة القصة ولا يبالون بأية لغة يكتبون . ولذلك تجد ماشئت من الخروج علي القواعد أى قواعد اللغة وعرف القصة وأسلوب الرواية . وأنت اذا لم تكن صبوراً فانك تطرح الكتاب بعد فصل أو فصلين

ولهذا أسباب كثيرة أولها وأهمها أن هؤلاء الثائرين لايريدون التسامح فى قليل أو كثير من الخيال . فهم يقررون الواقع ويريدون مواجهة الحياة بكل ما فيها من خير أو شر . فليس يبالى احدهم ان يقول لك ان فى الحياة اقذاراً وان الناس يبنون المراحيض فى بيوتهم . ثم اذا عبت عليهم تفكك القصة أو تشتت حوادثها أوانها غير مهذبة فى صيغتها اجابوك بأن الحياة كذلك ليست منسجمة ولا مهذبة . وانت اذا وقفت لحظة لكى تفحص عن خواطرك وافكارك لا لفيتها فى غاية التشعب والتشتت . ولن تجد صورة مهذبة لاي حادثة الا فى

القصص الخيالية . وهم لا يريدون ان يروا قصصا عذبة لذيذة وانما يريدون ان يترجموا الحياة الحقيقية كما يعيشونها هم أو كما يرونها فى غيرهم بدون تحلية أو تزويق

ويمكن أن نلخص العوامل التى اثرت فيهم بما يلى :

١ — ان الحرب فتقت أذانهم للشك فى كل شىء حين رأوا مبادىء الاخلاق التى تعلموها لاقيمة لها أصلا

٢ — ان الامراض العصبية والنفسية التى نشأت من الحرب قد أشاعت نظريات العقل الباطن على طريقة فرود وبعثت حرية جديدة فى بحث البواعث التى تبعث على التفكير وغاية الحياة

٣ — ان هذه النظريات نفسها اكدت ضرورة التفريج عن الغريزة الجنسية والكف عن الكبت وقمع الشهوات

وهم بكلمة مختصرة قد تركوا « الادب » والتمسوا الحياة . واذا كانوا يعتمدون على القصة فذلك لانها تتسع لالوان مختلفة من العيش والنظر . وإلا فهم كثيرا ما يعمدون الي المقالة . وسواء عندهم هذه أو تلك أداة لبسط آرائهم فى الدنيا والانسان

وهؤلاء الثائرون كثيرون الآن فى انجلترا منهم من توفق الى فهمه ومنهم من يعتاص ويستوعر . وسنتكلم عن أشهرهم وهم لورنس وجويس وهوكسلى . فاما الاول فقدمات منذ سنتين . وهو فى زعم كثيرين رأس الثائرين وبداية العهد الجديد للادب الانجليزى . وهناك من يضع جويس على رأسهم . وكل من هؤلاء يختلف من الاخرين فى الطريقة والغاية . ولكنهم جميعا سواء فى الدعوة الي التمتع بالحياة بالذهن أو بالغريزة

وفى كل من لورنس وجويس نجد التفاتا كبيرا الى اللذة الجنسية وبحثا مستفيضا فيها كان من أثره أن منعت الحكومة بعض مؤلفاتهم من التداول . وهما كلاهما ينغمسان فى اعماق العقل الباطن حتى ليشعر القارىء لهما انه قد انتقل

من قراءة القصة الى قراءة حادثة معينة من تلك الحوادث التى يذكرها فرود فى بعض محاضراته . وقد كانت مارى ستوبس تعد قبل الحرب من الغلاة فى الدعوة الى الصراحة فى المسائل الجنسية ولكنها الآن لاتعد شيئاً أمام هؤلاء الثائرين كما ان دعوة برنارد شو الى مواجهة الحياة والنزول على حقائقها دون بهارجها وتزاويقها قد عمل بها وغلا فيها الدوس هوكسلى

والدوس هوكسلى هو رجل الذهن والعلم وهو أقرب الى ولز منه الى الثائرين . وهو يبتعد عن فرود والتحيل النفسى بقدر مايقترب من واطسون فى السيكلوجية السلوكية . وهو يستطيع أن يهرب من الحياة بقصة خيالية عن حالة الناس على الارض بعد مئات السنين

أما لورنس وجويس فلا يعرفان غير الواقع وكلاهما يجنح الى الغريزة ويضعها فوق العقل . وفى كل من هؤلاء الثائرين فجاجة هى علامة المبتدىء الذي لم ينضج

ويجدر بنا هنا أن نعرض موكب الادب الانجليزى منذ العصر الفكتوري الى الآن لنري هل هؤلاء الثائرون يقفون فى طرف هذا الموكب موقفا منطقيا أم لا

فان العصر الفكتورى اتسم بالجمود وانساق فى ادبه الى الخيال والايهام كما انساق فى اجتماعه الى الغش والنفاق . وكلتا النزعتين ترجعان الى أصل هو الصدود عن الحقائق الواقعة وكراهة الحياة كما هي وتوهمها شيئا آخر اسمى واجل واقوم مما هي فى الحقيقة . وكما كان هناك عرف اجتماعى وعادات فاشية تكسو الحياة بالنفاق كذلك كان فى الادب عرف آخر يدعو المؤلف إلى أن يتوهم الحياة وكأن ليس فيها غير مايهواه كل الناس من حسن وسمو وجمال

وقد صمد المجددون لهذا النفاق يكشفونه . ولما عرفوا ان النفاق الاجتماعى هو الاصل للنفاق الادبى عمدوا إلى الاجتماع يمزقونه تمزيقاً . وهذه هى مهمة برناردشو . وظهر « المنحطون » فدعوا فى صراحة وجرأة

إلى أن التمتع باللذات والشهوات ليس عيبا · وقد تورطوا بهذه الدعوة فى بعض الشذوذ

وبعد هؤلاء وهؤلاء جاء الثائرون وقد اصطلوا نار الحرب الكبرى فعرفوا من نفاق المدنية فى أربع سنوات مالم يعرفه أسلافهم فى سبعين سنة من العصر الفكتورى · فكانت ثورتهم أشد من ثورة المجددين

وليست الثورة مقصورة عليهم وحدهم فان الصدود عن الوهم والخيال عظيم الآن فى انجلترا حيث تروج كتب التراجم للعظماء وأشباه العظماء كما تروج التواريخ رواجا عظيما · وهذا يدل على ان الجمهور نفسه يريد أن يقرأ قصصا حقيقية عن أشخاص حقيقيين ولا يريد وهما أو خيالا · وإذا كان برنارشو قد قصر الادب على خدمة الاجتماع فان هؤلاء الثائرين لا ينشدون من الادب سوى غاية واحدة هى البحث عن الطرق التي نستطيع بها أن نعيش أمتع عيش والذه · فهم يرون أننا شغلنا عن لذة الحياة بنظريات وواجبات غريبة فى حين ان غايتنا الاولى يجب ألا تكون الفلسفة أو العلم أو خدمة البشر أو تحصيل العيش وانما الغاية الاولى والوحيدة التمتع بالحياة · وماعدا ذلك فحواش وزوائد

لورنس . أحد الثائرين

مات لورنس منذ بضع سنوات فشرع الكتاب يدرسونه وينحصون عن الغاية التى رمي إليها . وكان طول حياته لا يلقى سوي الاستهجان أو الاهمال ، الذى هو عند المؤلفين ، شر من الاستهجان

وقد نشأ لورنس فى بيئة العمال لأن أباه كان فلاحاً يشتغل فى مناجم الفحم . ولكن أمه كانت على شيء من التثقيف فوجهت الصبي نحو القراءة والتطلع فى الأدب . وما هو أن بلغ سن الشباب حتى كان يحترف التعليم فى إحدى المدارس فى الريف ويراسل المجلات فيكتب القصص والقصائد والمقالات . وقد مات وهو دون الخامسة والأربعين ولكن الضجة التى أثيرت عقب موته لن تموت إذ هي تجد من الانصار والخصوم ما سيبقى على ذكره بالجدال القائم عن مذهبه فى الادب الجديد

وقد كان للورنس مذهب يدعو اليه لو أردنا الرجوع لاسبابه لاحتجنا الى شرح طويل . فاننا نجد فيه مثلا نزوعاً الى « المنحطين » حين يتكلم عن اللذة الجنسية يذكرنا بأوسكار وايلد وان كان فى الوقت سليما من الشذوذ . كما نجد فيه دعوة الى الحياة واشتهاء اللذات والتجارب والاكبار من شأن الجسم واللحم والدم مع اهمال النفس والاخلاق . وهي دعوة تشبه نزعات النهضة الاوربية مع الزيادة والمبالغة . وهو مع ذلك ينظر للحياة نظراً صوفياً يريد أن يعرف أسرارها ويتذوق أطايبها . وهو فى هذا النظر ينتهى ، كما انتهى بعض الصوفيين من قبل ، الى اللذة الجنسية . وذلك لان الدعوة الى الحياة كثيراً ما تسير نحو الثورة على العرف والاخلاق والذهن . والرغبة فى تحسسها وتجربة ما فيها من ألم أو لذة هى فى الحقيقة رغبة فى إيثار الغريزة على الذهن . وعندئذ يلتقى المهذار المستهتر بالجاد الفلسف فى ميدان واحد وان كان كل منهما يختلف من الآخر فى بواعثه

زد على هذا تعقد الحضارة القائمة وانها تشغلنا بشواغل وتخلق لنا من الواجبات ما يجعلنا ننسى أن انسانيتنا انما تنبت فى أصل حيوانى وأن الواجب

الاصلى هو أن يعيش كل منا ويتمتع بعيشه ثم بعد ذلك يمكنه أن يتكلم عن الوطن أو الصناعة أو الادب أو الفلسفة أو ما شاء من ثمار الحضارة القائمة

هذا هو لورنس الثائر على الادب الانجليزى فانه يصيح بأعلى صوته : قبل أن تهذر عن فنون الحضارة وواجبات الانسانية تذكر انى أريد أن أعيش وأبلغ أقصى ما يمكننى من ملذات الحياة وآلامها وتجاربها « فانى أومن بدين عظيم هو الدم واللحم وهو يسمو على الايمان بالذهن »

واليك هذه النبذة المثيرة نقتبسها من بعض كلامه حيث يقول : « ماذا يعود علينا من هذا النظام الصناعى الذي يزحمنا بالاقذار فى حين لا يتمتع أحدنا بعيشه ؟ اننا نحتاج الى ثورة ولكنها لن تكون ثورة فى سبيل المال أو العمل بل فى سبيل الحياة . ولكن المال أو العمل شيئاً عرضياً . انى أزداد كل يوم ثورة ولكن ثورتى هي من أجل الحياة . وليست المادية التى يقول بها ماركس خيراً مما نحن فيه . لاننا انما نحتاج الى الحياة وتبادل الثقة حيث يثق الانسان بالانسان ويصبح العيش فى الدنيا شيئاً حراً وليس شيئاً مكسوبا . وهذا العالم سيختار بين أمرين أما القيام بحركة كبيرة للسخاء والتسامح وأما انتظار الموت الكاسح »

ويجب على القارىء ألا يخطىء هذه الدعوة فيحسبها أنانية لا أكثر . فان لورنس كما قدمنا صوفى وان كانت صوفيته أشبه الاشياء بحب روسو للطبيعة كما ترى من هذه القطعة :

« أن الانسان فى حاجة قبل كل شيء وفوق كل شيء الى أن يؤدى لجسمه حقوقه لانه هو الآن ، الآن فقط ، يعيش فى اللحم ويقوى به . وأعظم العجائب عند الانسان أن يحس انه حى . ومهما قيل عن الموتى والذين لم يولدوا وعما يعرفون فانهم لا يعرفون الجمال الذى نعرفه عن الحى بحياة اللحم . وللموتى أن يعرفوا ما وراء الدنيا . ولكن هذه الجلالة التى نعرفها عن الحياة والجسم انما نحن الذين نعرفها ونعرفها لمدة معينة . ويجب علينا اذن أن نرقص طربا لاننا نحيا ونلتئم فى جسم الكون . لانى أنا جزء من الشمس كما أن عينى جزء منى . وقدماى تعرفان انى جزء من الارض كما أن دمي جزء من ماء البحر . وكذلك نفسى تعرف انى جزء من البشر وانها هي عضو حى فى النفس البشرية الكبرى

كما أن روحي هو جزء من أمتي . وفي أعماق نفسي أنا جزء من أسرتي . وليس عندي شيء هو مستقل مطلق سوى عقلي ولكن ليس للعقل كيان في ذاته اذ هو لايختلف عن لمعة الشمس علي سطح المياه

«وانفرادي اذن هو وهم لاني جزء من هذا الكل العظيم ولن أستطيع الفكاك منه. ولكن يمكنني أن أنكر صلتي به حتى أعود وكأني شظية منفصلة. وعندئذ أشقى. ونحن نحتاج الي أن نحطم الصلات الكاذبة التي تربطنا بغير الاحياء وخاصة تلك الصلات التي تربطنا بالمال. ونعيد الصلات الحيوية بيننا وبين الكون بالشمس والارض والناس والاسرة . ولنبدأ بالشمس ،وعندئذ نسير في بطء نحو الصلات الاخرى»

واذا دعا كاتب انجليزي الي الشمس فانما يدعو الى الطبيعة لان الشمس عنده خلاء وريف وهجرة من المدن وعيش ساذج بعيد عن تكلف الحضارة

ولكن لورنس يستهجن عندخصومه لانه يدمن الكلام عن اللذة الجنسية. وهو قد انغمس في الثقافة الجديدة وعرف شيئاً كثيراً عن العقل الباطن وألف فيه . وهذه الثقافة الجديدة التي تعزى الى فرود تنظر للذة الجنسية كأنها المحور للنشاط الانساني وهي تدعو الى الصراحة في جميع مسائل الجنس أو شهوات الرجل والمرأة لانها عرفت ان ثلاثة أرباع المجانين في المارستان يرجع جنونهم الى قمع هذه الشهوات والخوف من التصريح بها . ولذلك لا يبالى لورنس ان يصف لك جمال المرأة وصفاً يجعل الحكومة الانجليزية تمنع قصصه من التداول . ثم هو لايعبث أو يلهو بالكلام عن هذا الموضوع اذ يكفي القارىء أن يعرف انه يتفق ودعوته الى التمتع بالعيش . وهو يقول اننا نقمع في أنفسنا الشهوة الجنسية أو نخاف الكلام عنها حتى ليقف الجنسان وكأن كل منهما عدو للآخر فهو اما متوجس واما قامع . وهنا يقول :

« عليك أن تقبل وجودك الجنسي الجسمي ووجود كل حي آخر . فلا تخفه ولا تخف وظائفك الطبيعية ... فان خوفك هو الذي يقطع بينك وبين أقرب الناس اليك وأعزهم عليك . ومتي قطع الناس ما بينهم عادوا متوحشين قساة متهجمين . فاهزم الخوف من الجنس وأعد للطبيعة مجراها »

وليس من حقنا أن نطالبه بنظام وقواعد ، فانه داعية ينبه ويوقظ ، وعلي غيره يجب أن يقع عبء التنظيم ووضع القواعد

جيمس جويس

كان يقال مدة الحرب وعقبها انه مامن انسان رأى هذه الحرب إلا وقد صار غير ما كان قبلها . وهذا القول يصح على الذين درسوا فرود . فانه مامن انسان درس العقل الباطن ووقف على خفاياه وترهاته وأمانيه إلا وصار غير ما كان قبل أن يدرسه

وهذا جيمس جويس قد ابتدع طريقة جديدة فى القصص لانه جعل موضوعه درس خفايا النفس معتمداً على مادرسه من السيكلوجية الحديثة . فهو فى قصة « أولس » لاينقل اليك مايقوله أشخاص القصة بل يصف لك خواطرهم وهو يصفها باخلاص فلا يهمل الشيء لانه مستكره ولا يسهب فى الآخر لانه محبوب . وقد قال هو عن الفن انه يجب أن يكون حراً بعيداً عما نكره وعما نحب . وكأنه يصف العلم بهذا القول

ولد جيمس جويس فى دوبلين سنة ١٨٨٢ وتربى عند اليسوعيين الذين تتفشى مدارسهم فى أنحاء ارلندا . وقد بولغ فى تربيته الدينية وجاءت المبالغة بالنتيجة العكسية التى تنتظرمنها . لانه يعد الآن من أعداء الكنيسة الكاثوليكية

ولكن هذه العداوة تدل بما فيها من حدة ومثارة على ان جيمس جويس لايمكنه أن ينظر إلى الدين بعين المجانة والاهمال . وقد قيل عنه بحق ان جميع مؤلفاته لاتحتدم ولاتبلغ أقصى حماستها إلا فى مكانين أحدهما عند مايعالج جدلا دينياً والثانى عند مايعالج الشهوة الجنسية . وهو فى كلا الموضوعين يجد ولايهزل ويكتب وكأنه يريد التقرير ولا يبالي النتيجة بعد ذلك

ولكن هذا العقل الباطن الذى يلتفت اليه كثيراً فى مؤلفاته يجعله يخرج علي قواعد اللغة فيكتب الصفحات تلو الصفحات ليس فيها علامة من علامات الوقف أو الاستفهام أو نحوهما مما يعرفه قراء الانجليزية . ويتفكك الاسلوب

لان الخواطر التى يسردها مفككة لا تتصل

ولكى يقف القارىء على طريقته الجديدة يمكنه أن يقف نفسه فجاءة وهو سائر فى الطريق مثلا ويبحث عن الخواطر التى ترد عفوا إلى ذهنه . فانه أمام نفسه وأمام الناس يسير وكأنه أحد الناس . ولكنه لو فحص عن خواطره لألفاها فى غاية التبلبل والاختلاط . ولو هو عرف كيف يحللها لوقف منها على حقيقة نفسه وصميم أمانيه ولباب الخطة التى يختطها فى حياته من حيث لا يعلم

مثال ذلك لنفرض انى أسير فى الشارع خلف جنازة لأحد الاصدقاء أو المعارف فلو تركت ذهنى ينطلق لوجدت طائفة من الخواطر ترد الى عن الموت وهى :

استلقاء على الظهر . نوم . انتفاخ البطن . ظلام . فولتير . لشبونه . زلزال . باب القبر . جرس للميت . فؤاد . صندوق . احراق الجثث . سبنسر . مادية . برجسون . الخ

فكل هذه الخواطر ترد وهى فى ذهنى تتصل ولكنها أمام القارىء مفككة قد تغيب عنه دلالتها . ومن هنا الصعوبة فى قراءة جيمس جويس لانه يصف لنا حياة الذهن ويكشف عن مخابىء العقل الباطن . ويضطره هذا الموقف إلى أن يذكر لنا تلك الخواطر الجنسية التى تمر فى ذهن الشاب أو الفتاة كما يذكر لنا فيما لا يقل عن صفحتين تلك الخواطر التى تمر بذهن أحد الاشخاص الذى يدخل المرحاض عقب امساك فهو يتريث ويتلبث وكأنه يلتذ التخلص من امساكه

وأحسن قصصه هو قصة « أولس » التى يصف فيها يوما واحدا من أيام حياته فى أكثر من ٧٥٠ صفحة . وهذا الاسهاب يرجع إلى انه يعنى بخواطر العقل الباطن فى حالى الصحو والسكر فيصف لنا بطل القصة وهو يحضر جنازة صديق ثم وهو فى مطعم ثم يصفه وهو فى ماخور دنس بين الخمر والبغايا ثم فى منزل صديق ، ويسهب فى وصف الخواطر الجنسية لاحدى النساء إسهابا يبلغ حد البشاعة . والقصة تبتدىء من الساعة الرابعة بعد الظهر وتنتهى فى الساعة الثانية أو الثالثة من الصباح

واليك هذه القطعة التى يصف فيها دخول بطل القصة فى المطعم :

« كان قلبه يدق عند مادفع باب المطعم . وكان قد أدرك أنفاسه صنان من العصارة الحريفة للحم وغسالة الخضراوات . هاهي الحيوانات تأكل

« رجال . رجال . رجال

« قعدوا على مقاعد عاليـة إلى المشرب وقبعاتهم قد نحيت إلى الوراء . وقعدوا الى الموائد يطلبون الخبز . الخبز مجاناً . مجاناً . يشربون ويلتهمون لقما ضخمة من أطعمة تعوم فى المرق وقد جحظت عيونهم وأخذوا يمسحون شواربهم . وهنا شاب شاحب له وجه كشحم الثرب يمسح كوبه وشوكته وسكينه وملعقته بالمنشفة . مجموعة جديدة من المكروبات . وهنا رجل قد علق على صـدره منشفة أطفال قد لوثتها الصلصة وهو يغترف الحساء ويصبها فى بلعومه . ورجل يبصق فى طبقه : غضروف لم يتم مضغه . ليس له أسنان للمضغ . طرف جامد من اللحم المشوى . يبلعه لكى يتخلص منه . لهذا السكران عينان حزينتان . قضم قضمة لايمكنه أن يمضغها . هل أنا كذلك ؟ . « كما يرانا غيرنا ... »

فهنا يرى القارىء رواية الحوادث تختلط بخواطر الذهن . وليس هنـا مايستبشع أو يغمض فهمه على القارىء ولـكنه فى أمكنة أخرى لايبالى أن يصف ديدان العقل الباطن وهي ترقص فى التن

وليس جيمس جويس أول من عالج الخواطر الذهنيـة . فان كثيرين من القصصيين عالجوها فى الحديث الذاتى حين يكلم الانسان نفسه لان هذه الخواطر هي حديث الانسان لنفسه . ولـكن جيمس جويس جعلها موضوع القصة الاساسى ورواها على أصلها بلا تنقيح أو تهذيب

وجويس متشعب الثقافة يعرف الزوجية وقد درس ابسن فى هـذه اللغة وعاش فى فرنسا وتقلب بين عواصم أوربا . واذا شك الانسان فى القيمة التجديدية لمؤلفات لورنس أو هوكسلى فانه لايستطيع أن يشك فى هذه القيمة عنـده . وهذا بالطبع لايعنى الثناء عليه . فان طريقته تحتاج الى أن يصهرها النقد من جهة ويحكم عليها الجمهور من جهة أخرى ان اقبالا وان نفورا

الدوس هوكسلى

يمكن الذين يؤمنون بالوراثة أن يؤيدوا إيمانهم بمثال الدوس هوكسلى . فان والده هوكسلى الكبير يذكر اسمه مقروناً الى اسم داروين . ولولا دفاعه عن نظرية التطور وجهاده فى الدعوة اليها لما اكتسبت كل ما اكتسبته من أصدقاء وأعداء . وكذلك أخوه جوليان فانه يعد من أعظم الدعاة إلى العلم ونشره بين الشعب . وقد شارك ولز فى كتابه الشعبى الضخم « علم الحياة »

ولم يبلغ الدوس الأربعين من عمره . ولكن اسمه ذائع الآن بين جميع الأوساط الراقية . وثورته على الادب القديم أوعلى الادب فى العصر الفكتوري هى ثورة الذهن . فان الرجل يكتب فى الأدب بالروح العلمى . وهذا خلاف لورنس أو جويس اللذين يضعان الغريزة فوق الذهن

ولالدوس هوكسلى جولات فى الفلسفة والنقد تنبىء عن ميله العلمى واعتماده على ذكائه وتعمقه فى الثقافة . وقلما يقرأ له الانسان فصلا فى النقد أو قصة قصيرة أو كبيرة الا ويبهره ذكاؤه ونشاطه الذهنى . ولكنه لهذا الذكاء نفسه يميل إلى الهدم أكثر مما يميل إلى البناء . وذلك لانه يجد أشياء كثيرة تحتاج إلى الهدم

والقارىء لقصصه يذكر ولز فى وصف الاشخاص وطريقة الرواية كما يذكر شو فى النزاهة الذهنية . فانه يجعل العلاقة بين القارىء وبطل القصة حميمة حتى لتثبت الصورة وتمثل من آن لآخر كأنها صديق قديم قدعرفنا خصاله وأحواله منذ سنوات . وقد كان يقال عن تولستوى الاديب الروسى انه يمكنه أن يصف للقارىء عقل الحصان . وهذا أحسن ما يقال فى التنويه بقدرة الكاتب. ولكن كلا من ولز وهوكسلى يمكنه أن يصف عقل الطفل ويجعلنا نحبه ونذكره كأنه ليس طفل القصة بل طفلنا نحن

أما فى الحوار والنقد فان أثر برنارد شو واضح فيه . فانه يؤمن بالحرية ويبالغ فى الايمان بها . ثم هو أحياناً كثيرة يندفع بالحماسة من الفن إلى الدعاية . وهذا الاندفاع ليس مقصوراً على الدوس هوكسلى فانه يكاد يعم جميع المجددين والثائرين من الانجليز . فان الطبقة الجديدة من الشبان الادباء مثل ت . س . اليوت أو مدلتن موراى يعدون فى طبقة الدعاة أكثر مما يعدون فى طبقة الادباء . فان ت . س . اليوت يدعو الى البشرية ومدلتن موراى يدعو الى الشيوعية . ولكل منهما مجلة لهذه الدعاية

وواضح انه فى أطوار الانتقال يستحيل الادب الى دعاية لان الاديب يأخذ فى تقرير القواعد الجديدة ونقض المبادى القديمة . وقد يفنى عمره فى تحقيق هذه الغاية قبل أن يستقر الجديد وينقض القديم . ولكن هذا الاستقرار نفسه إذا لم تزعزعه نزعات جديدة قد ينتهى إلى جمود . ولذلك يجب أن نقول أن فى كل أدب حى بذرة من الدعاية . وخاصة فى أيامنا هذه حيث تسير التطورات الاجتماعية فى هرولة عجيبة

ويتفق الدوس هوكسلى مع سائر المجددين والثائرين فى درس السيكلوجية الحديثة ولا يفوته التحليل النفسى فى كثير من المواقف والاحوال . فان المرأة التى تقبل الطفل تذكر حبيبها وقبلته وعناقه كما ترى من هذه القطعة :

« ثم تذكرت الطفل فجأة والتفتت اليه باندفاع العاطفة وقبلت خده المستدير وقد علته حمرة الخوخ . وكانت البشرة ناعمة باردة كأنها ورقة الزهرة . وتذكرت زوجها فتخيلته وهو يقبلها عند ما يعود من عمله إلى البيت . وهذا المساء عند ما تقعد هى لسكى ، تخيط يكون هو قد قعد قبالتها يقرأ تاريخ جيبون عن انحطاط الدولة الرومانية بصوت عال . انها لتعبده وهو قاعد أمامها يقرأ فى نظارته ... وذكرت قراءته وكيف ينطق ببعض الالفاظ فاستعادت ذكراها وشعرت برغبة حادة لو أنه كان إلى جانبها الآن فتطوى ذراعيها على عنقه وتقبله .... »

وكل هذه الخواطر انما وردت عقب تقبيلها للطفل . ولو كان جيمس جويس هنا فى هـذا الموقف لذكر كل هـذه الخواطر ثم زاد عليهـا حتى يفضح العقل الباطن كله

ولا لدوس هوكسلي مقال عن أزياء الحب يعبر الي حد ما عن طريقته فى معالجة القصص وعن رأيه فى أحرج المواقف القصصية . وهو لا يبعد كثيراً عن برتراند روسل وان كان لا يصرح بكل مايقوله هذا العالم الاجتماعى . فهو يرى أن للحب أزياء كما للملابس ولـكن أزياء الحب أغمض . والزى الشائع الآن هو نوعان يتصارعان . أحدهما ذلك المثل الأعلى الذي ورثه الفتى والفتاة عن ثقافة المسيحية والقصص الخيالية . والآخر هو ذلك الذى اكتسباه عن السيكلوجية الحـديثة . والاول يعمـل لملازمة العرف والعادة والثانى يعمل لالغائهما . وقد ساعدت الحرب على تفشى النوع الثانى فجاءت نظريات فرود لتبرير الواقع وليس للدعوة اليه . فان الشبان يتكلمون الآن عن الضرر الناشىء من قمع الشهوات وضرورة التفريج والتنفيس واكتساب الخبرة بالتجربة

وقد كان الفريد دوموسيه يقول : « انى أحب وأريد أن أذوى . انى أحب وأريد أن أتألم »

ولـكن الشاب أو الفتاة لا يريدان التألم وانما يريدان التمتع . ولـكن المبالغة فى التمتع تعود انغماساً أو تهالكا لا يقتل الشهوات فقط بل يتلف على المرء لذة التسلية . والمبالغة فى الحرية كالمبالغة فى التقييد سواء . ولذلك يرى الدوس هوكسلى أن الزى الحاضر للحب سوف يزول لان الحب الذى يسهل تحقيقه ليس عظيم القيمة . وفى التاريخ مايدل على أن الناس حين ترخصوا فى الحب وأباحوه عادوا، وقد أنفوا واستنكفوا ، الى مايشبه الزهد والانكفاف عن الشهوات . ولـكنه يرى هنا الحاجة إلي ايجاد الزواجر النفسية التى تعمل للقمع وتحول دون الاباحة . وهو لا يؤمن بالزواجر الدينية التقليدية فهو لذلك يخترع زواجر جديدة ويقول اننا يجب

أن نؤمن بما يسميه «الشخصية الانسانية» وأن ننشأ على احترامها ونربي أبناءنا على أن يجدوا منها وفيها تلك القيود التي كان آباؤنا يجدونها فى الاخلاق التى ورثوها عن المسيحية والقصص الخيالية

وأنت اذن ترى أن العقدة التي تشغل بال الدوس هوكسلى هي العقدة الدينية وانه من هذه الناحية بشرى مثل ت٠س٠ اليوت زعيم « البشرية » فى انجلترا والولايات المتحدة

والحق الذى لايمكن انكاره أنه ليس فى انجلترا أديب يؤبه به الا وللدين أكبر مكانة فى ذهنه سواء فى ذلك المجدد أو الثائر والشاب أو الشيخ ٠ وقد يعد القارىء بعض هؤلاء الادباء كفاراً أو ملحدين لانهم يعارضون المذهب السنى للدين ولكنه لا يتمالك مع ذلك من الاعتراف بأنهم يجاهدون ويستنبطون الافكار والآراء لكى يقنعوا أنفسهم بأنهم يقفون من الكون موقف الاخلاص والاجتهاد للخير